لن أمنحكم كراهيتي

أنطوان لاريس

ترجمة: صابر رمضان

روايات مترجمة

العربي للنشر والتوزيع

مقدمة لا بد منها

يعد 13 نوفمبر 2015 نقطة سوداء في تاريخ باريس المعاصر، ويومًا لن تنساه. حيث قام مسلحون بالعديد من التفجيرات والعمليات الانتحارية، وقاموا بإطلاق النيران على المواطنين الأبرياء في ستة مواقع في "الحي العاشر" و"الحادي عشر" في مسرح "باتاكلان" وشارع "بيشا" وشارع "أليبير" وشارع "دي شارون" وفي محيط إستاد فرنسا.

الساعة 9:20 مساءً

في إستاد فرنسا، فجَّر شخص يرتدي حزامًا ناسفًا نفسه بالقرب من إحدى بوابات الإستاد. حيث كانت تقام مباراة دولية ودية لكرة القدم، بحضور الرئيس الفرنسي "فرانسوا هولاند" ووزير الخارجية الألمانية "شتاينماير". أسفر هذا الحادث عن مقتل اثنين، منهم منفذ العملية.

الساعة 9:25 مساءً

عند تقاطع شارع "بيشا" وشارع "أليبير"، أطلق مسلحون النار على مرتادي بار "لو كاريون" ومطعم "بوتي كامبودج"، فقتل 15 شخصًا وأصيب آخرون بجراح بالغة.

الساعة 9:30 مساءً

قام أحد الإرهابيين بعملية انتحارية خارج إستاد فرنسا. كما قام مسلحون بإطلاق النيران على بار "ألا بون بيير" في "الحي الحادي عشر". أدى ذلك إلى مقتل 5 أشخاص وإصابة آخرين. وهجم المسلحون على الناس في مطعم "لا بل إكيب" في شارع "دي شارون" وقتلوا 19 شخصًا وأصيب 9 آخرين.

الساعة 9:40 مساءً

لم يكتفِ الإرهابيون بذلك، استمرت الهجمات حتى وصلت إلى مطعم "لو كونتوار فولتير" في "الحي الحادي عشر" عن طريق مهاجم فجَّر نفسه. وفي نفس الوقت، ذهب مسلحون بسيارة إلى مسرح "الباتاكلان"، قاموا باقتحام المسرح، واحتجزوا رهائن، وأطلقوا النيران بعشوائية. كان يقام هناك حفل لأحد فرق الروك "إيجلز أوف ديث ميتال"، بحضور حوالي 1500 شخص.

كان هذا الحدث الفادحة الكبرى؛ فقد سقط فيها 89 من المواطنين الأبرياء إضافة إلى العشرات من المصابين.

الساعة 9:53 مساءً

.للمرة الثالثة، قام مهاجم بتفجير نفسه بالقرب من إستاد فرنسا

الساعة 12:20 بعد منتصف الليل

استمرت الهجمات بعد أن فجَّر اثنين من الإرهابيين حزاميهما الناسفين، وبعد أن نجحت قوات الأمن في تحرير المحتجزين في "الباتاكلان". أسفرت هذه الأحداث المؤلمة عن مقتل 129 شخصًا منهم 89 ضحية في أحداث "الباتاكلان" فقط، وإصابة ما لا يقل عن 352 شخصًا، 99 منهم على الأقل كانوا في حالة حرجة جدًا. وأعلن الرئيس الفرنسي "فرانسوا هولاند" على إثر هذه السلسلة الدموية،حالة الطوارئ في البلاد، ودعا الجيش للنزول إلى الشارع للمساهمة في حفظ الأمن. كانت هذه الهجمات الإرهابية صدمة كبيرة لباريس وفرنسا والعالم بأكمله. فلم يسبق من قبل أن تشهد باريس، مدينة السحر والجمال كل هذه الدماء في ليلة واحدة. وقف العالم بأكمله على إثر هذه الأحداث حدادًا على أرواح الضحايا الأبرياء. وبدأ تقديم التعازي في مختلف السفارات بمختلف الدول. كما أثارت هذه الأحداث جدلًا واسعًا على مواقع التواصل الاجتماعي. حيث قام الملايين من الناس بتغيير صورتهم على صفحاتهم الشخصية إلى صورة علم فرنسا؛ تضامنًا وتعاطفًا مع ضحايا باريس. وأتاح "مارك زوكربيرج"، مؤسس "الفيسبوك"، خاصية تلوين الصورة الشخصية بعلم فرنسا على "الفيسبوك". وبعدها، ثارت حملة كبيرة ضد الإرهاب ولمن يرتكبون هذه الهجمات الخسيسة التي وصلت إلى أهم دول أوروبا. ومع ذلك، يظل الأثر الأكبر والأصعب لهذه الأحداث في نفوس أهالي الضحايا. لك أن تتخيل شعور أن تفقد واحدًا، أو أكثر، من أقرب الناس إليك في حادثة إرهابية. كان ذلك هو شعور "أنطوان لاريس"، الصحفي بشبكة "فرانس بلو"، الذي كانت زوجته "هيلين" واحدة من ضحايا مسرح "الباتاكلان" أثناء حضورها لحفل الروك. تركت له طفلًا لم يبلغ من العمر سوى سنة ونصف. كان "لاريس" متأثرًا بفقدان زوجته بشدة لدرجة أنه لم يعرف كيف ستسير الحياة معه ومع صغيرهما من دونها. كتب منشورًا على "الفيسبوك". قرر أن يوجه رسالة إلى المسلحين الذين قتلوا زوجته -ذات الخمس وثلاثين عامًا -بأنه لن يحمل الكره لهم رغم ما فعلوه. رفض حالة التخويف المنتشرة، ورفض أن يترك حياة ابنه تنهار بسبب القتلة الإرهابيين. على الفور، نال المنشور شعبية واسعة، وتمت مشاركته أكثر من مئتي ألف مرة. وتحدث عنه الجميع في الصحف وبرامج التلفزيون في كل أنحاء العالم. تخليدًا لما حدث مع "لاريس"، أصدر كتابًا بكل التفاصيل التي تعرض لها في تلك الأحداث، والتي ستتعرضون لها أنتم

في الصفحات المقبلة؛ لأن منشور "الفيسبوك" سيغيب عن الأنظار، ولكن الكتاب سيظل شاهدًا على هذه الأحداث. ونحن في ضوء اهتمامنا بنشر كل ما يهم العالم، كان من واجبنا أن ننافس على هذا الكتاب، كي ننشر رسالة "لاريس" لكل من يتحدث العربية تقديرًا لشعوره الشخصي ومعاناته. ففي المقام الأول والأخير، تبقى قضية الإرهاب قضية تلحق الضرر بالجميع دون تفرقة؛ لتبقى الإنسانية سلوكًا عالميًا لا يخص وطنًا دون الآخر، ورسالة واحدة لكل .سكان المعمورة

.الناشر "بحثت عنها في كل مكان

هل ما زال أحد هناك؟- ...-

."عليك أن تهيئ نفسك للأسوأ، يا سيدي-

ليلة الجحيم

13/11/15

نوفمبر الساعة 10:37 مساء 13

كان "ميلفيل" نائمًا في هدوء، فقد تعود ذلك عند غياب أمه. فهو يعرف أن أغاني قبل النوم تصبح أقل عذوبة ً والأحضان أقل دفءًا مع أبيه، لذلك لم يعد يطلب المزيد منها. أما أنا، فشرعت في القراءة لكي أبقى متيقظًا حتى عودتها. كنت أقرأ قصة ذلك الروائي الذي تحول إلى مفتش والذي اكتشف أن الروائي الآخر الذي تحول إلى قاتل لم يكتب الرواية التي كانت السبب في أن يكتب. ثم تغيرت الأمور بعد ذلك، وتبين لي أن الروائي القاتل لم يقتل أحدًا أصلاً، وكل هذا كان لأجل لا شيء. ثم رنَّ تليفوني الموجود على الكومودينو بهذه الرسالة: "مرحبًا، هل كل شيء على ما يرام؟ هل أنتم بالبيت؟". لم أكن أرغب في شيء يزعجني. فأنا أكره تلك الرسائل التي لا فائدة منها. لذا لم أرد عليها. "هل كل شيء على ما يرام؟"..... "هل أنتم في أمان؟". ماذا يعني ب"في أمان"؟ وضعت الكتاب وأسرعت على أطراف أصابعي إلى الصالون. فيجب ألَّا أوقظ الصغير. أمسكت الريموت، لكن هذا الجهاز اللعين يحتاج إلى وقت طويل كي يعمل. هجوم على إستاد فرنسا. لم أفهم شيئًا من الصور. فكرت في "هيلين"، عليَّ أن أتصل بها وأخبرها أن تكون أكثر حذرًا وتأخذ تاكسي وتعود إلى البيت. لكن هناك شيء أخر، فالعديد من الأشخاص متسمرين أمام شاشة في ممرات الإستاد. ولم أفهم الصور إلا من خلال تعبيرات وجوههم. فيبدو أنهم في حالة من الرعب ويلحظون شيئًا لم أره بعد. ثم فجأة توقف الشريط الذي يمر أسفل الشاشة، وكانت الصدمة. "هجوم على مسرح باتاكلان". انقطع الصوت. لم أعد أسمع شيئًا في صدري إلا قلبي الذي كاد أن ينخلع من مكانه. رنت تلك الكلمات الأربعة في رأسي وكأنهما صدى لا يريد أن يتوقف أبدًا. ومرت الثانية وكأنها عام. عام من الصمت، هناك على الكنبة. لا بد أن هناك خطأ ما. تحققت من أنها ذهبت إلى هناك، من المحتمل أنني أخطأت أو نسيت. لكن من المؤكد أن الحفل .على مسرح "باتاكلان". و"هيلين" موجودة هناك

انقطعت الصورة. لم أعد أرى شيئًا، لكنني شعرت بصدمة كهربية تسري في جسدي كله. جاءتني رغبة في أن أجري وأسرق سيارة لأذهب للبحث عنها. كنت على قدر كبير من الاستعجال، وكأن هناك نارًا مشتعلة في رأسي. وليس أمامي سوى أن أتحرك لإخماد هذه النيران. ولكنني في حالة من العجز لأن "ميلفيل" ينام إلى جواري وأنا متسمر هنا في مكاني ومحكوم عليَّ أن أشاهد النار وهي تنتشر في رأسي. تولدت لديَّ رغبة في البكاء. لكن هذا مستحيل، يجب ألَّا أوقظ الصغير. أمسكت التليفون. يجب أن أتصل بها وأتحدث إليها وأسمع صوتها. فتحت دليل الأسماء. "هيلين"، هكذا بكل بساطة "هيلين"، فأنا لم أغير اسمها في دليل الأسماء ولم أضف إليه "حبيبتي" أو صورة تشير لها. وهي أيضًا لم تفعل ذلك. اتصال من "أنطوان لاريس" لم ترد عليه ذاك المساء. رنات ورسائل. حاولت الاتصال مرارًا وتكرارًا إلى الحد الممكن. شعرت بالضيق من هذه الكنبة التي ضاقت عليَّ. وكأن الشقة بأكملها على وشك الانهيار. ومع كل مكالمة لا ترد عليها، أشعر كأنني أغوص أكثر في تلك الأنقاض. كل شيء بدا لي غريبًا واختفى العالم من حولي. ولم يعد هناك غيرنا، أنا وهي. اتصل أخي ليذكرني بالواقع الأليم. "هيلين موجودة هناك". وفي اللحظة التي تفوهت فيها بهذه الكلمات، أدركت أنه لا مفر من تلك الحقيقة. وصل أخي وأختي إلى الشقة، ولا نعرف ما نقوله لبعضنا، فلم يكن لدينا ما نقوله. وعلى كل حال، لم نعرف مسمى لهذا الشعور. التلفزيون يعمل في الصالة، وأنظارنا مثبتة أمام قنوات الأخبار التي دخلت في سباق من العناوين الأكثر إثارة ومبالغة لتأسرنا كمشاهدين لهذا العالم الذي ينهار. "مذبحة"، "قتل"، "حمام من الدم". أطفأت هذه الشاشة قبل أن أسمع كلمة "مجزرة". أغلقت النافذة المطلة على العالم. ورجعت إلى الواقع. اتصلت بي زوجة صديقي "فلان" الذي كان في "باتاكلان" مع "هيلين" ولكنه لم يصبه مكروه. اتصلتُ به عدة مرات، ولكنه لم يرد. وفي نهاية الأمر رد علي تليفونه. انضمت إلينا أم "هيلين".

علينا أن نتصرف، نفعل شيئًا. أحتاج أن أخرج بسرعة كي أجدها وأتخلص على الأقل من هذا الصمت الذي خيم على الصالون. بادر أخي ومسك مفاتيح سيارته في هدوء. تهامسنا في حديثنا عن الخطة التي سنتبعها في البحث عنها. أغلقنا الباب خلفنا بحرص شديد. يجب ألَّا أوقظ الصغير. وبدأت رحلة البحث. لم يتفوه أحد منا بكلمة طول الطريق ونحن في السيارة، وكان هذا حال المدينة كلها، فلم نسمع أحيانًا ألا بعض صفارات الإنذار المصحوبة بصرخات الألم، فالصمت كان سيد الموقف في باريس. انتهى الحفل وتوقفت الموسيقى. سنذهب إلى كل المستشفيات التي يمكن أن تكون استقبلت الجرحى: مستشفى "بيشا"، مستشفى "سان لويس"، مستشفى "بيتي سالبتريير"، مستشفى "جورج – بومبيدو"، في تلك الليلة انتشرت رائحة الموت في كل أركان العاصمة. وفي كل مرة أتوقف فيها يقابلني أحد الموظفين فأقول له: "أبحث عن زوجتي التي كانت في مسرح باتاكلان". ولكنني لم أجدها في أي من القوائم. ولكن في كل مرة يعطونني أمل أو سبب للاستمرار في البحث. بعضهم قال لي: "لم يتم فهرست كل أسماء الجرحى". "هناك بعض الجرحى تم نقلهم إلى مستشفى بيشا". "تم نقل بعض منهم إلى مستشفيات الضواحي". تركت لهم رقم تليفوني وأنا على يقين أنه لن يتصل بي أحد. بعدها أسرعت إلى السيارة، وأنا أفتقد الصمت الذي كان يخيم على الطريق. حل الليل، أعمدة الإنارة تملأ جانبي الطريق الدائري، وكل ضوء يصدر منها يجعلني أشعر بالنعاس أكثر فأكثر. لم أعد أشعر بجسدي، لكن عقلي ما زال منتبهًا للطريق. لا بد أننا بعد الدوران الكثير على هذا الطريق الذي يحيط بالمدينة كلها سنصل إلى شيء ما. واصلنا البحث رغم أنه لم يعد هناك شيء نبحث عنه. كان لدي رغبة في الهروب. الهروب بعيدًا قدر المستطاع دون عودة. أذهب إلى نهاية الطريق لعَلِّي أرى إن كان هناك نهاية، نهاية لكل هذا. رأيتها، نهاية الطريق. كانت هذه النهاية موجودة في تليفوني عندما رن المنبه السابعة صباحًا. لا بد أن يأخذ "ميلفيل" رضعته خلال نصف ساعة. ثم يخلد إلى النوم مرة ثانية. فنوم الطفل لا يتأثر بويلات هذا العالم. يجب أن أعود. "أسلك المخرج الخاص بمدينة "سيفر"...".

الانتظار

نوفمبر الساعة 8 مساءً 14

ينتظر "ميلفيل". ينتظر أن يكبر حتى يستطيع أن يضيء نور الصالون. ينتظر أن يصبح راشدًا بالقدر الكافي الذي يجعله يخرج من دون عربة الأطفال. ينتظر أن أعد له العشاء قبل أن أقرأ له القصة. ينتظر وقت الاستحمام، وقت الغداء، وقت الوجبة الخفيفة. وفي المساء ينتظر عودة أمه قبل أن يخلد إلى النوم. فالانتظار شعور ليس له مسمى. والقصة الأخيرة التي أقرؤها له تعبر عن كل المشاعر في آن واحد؛ الهم والأمل، الحزن والسلوان، الدهشة والرهبة. وأنا أيضًا أنتظر. أنتظر الحكم الذي يصدره هؤلاء الرجال الغاضبون من خلال أسلحتهم الآلية. بالنسبة لنا، سيكون هذا الحكم أبديًا، لكننا لم نعرفه بعد. كنا نغني قبل الذهاب إلى النوم، ونقول لنفسنا أنها ستدخل علينا من باب الغرفة وتغني معنا المقطع الأخير من الأغنية. ونقول لنفسنا ستسير الأمور على ما يرام وستتصل بنا في نهاية المطاف. نقول لنفسنا سينتهي الأمر بأن نستيقظ من هذا الكابوس. نام "ميلفيل" ورنَّ التليفون، إنها أخت "هيلين". "أنطوان، أنا آسفة...".

الخنفساء الصغيرة

نوفمبر الساعة 5 مساءً 15

بعد انتهاء النزهة، حان وقت الاسترخاء. وبعدها سيأتي دور الحمام، والعناية بصحته، وتناول العشاء، ثم النوم. في ذلك اليوم، شعرت أنه منزعج، بدا ذلك من خلال بعض الاضطرابات التي لا معنى لها في حياة طفل رضيع لا يجيد التعبير عن آلامه. فالبسكويت لم يعد يرغب فيه. والكرة عندما ذهبت بعيدًا عنه، لم يعد يرغب في اللعب بها. وحزام عربته مشدود عليه بإحكام لدرجة أنه لم يعد يرغب أن يجلس فيها. ويتصارع مع كل هذه الأشياء التي تتدافع بداخله، وهو لا يفهم منها شيء. وقد سلبت هذه الاضطرابات البغيضة من الصغير فضوله الفطري. فأي شعور هذا الذي يدفعه للبكاء وهو غير جائع، أو مريض، أو خائف؟ يفتقد أمه التي مر يومان ولم ترجع إليه، والتي لم تتركه أبدا أكثر من سواد الليل. وحتى أهدئ من روعه، أرسلته ليبحث عن قصة في غرفته. فالمكتبة موجودة في مكان واضح، في متناول يده، فهي مليئة بتلك القصص التي شخصياتها تحمل أسماء تعبر عما بداخلها، "سعيد"، "مهرج"، "غاضب"... وأيضًا قصة فيل يريد أن يكبر بسرعة. وقصة فأر صغير يحاول الهرب من قطة تطارده من صفحة إلى أخرى. ثم اختبأ -في نهاية الأمر -في وعاء الزهور ويطلب قبلة قائلًا "ليلة سعيدة" و"ميلفيل" بدوره يلبي طلبه دائمًا. في ذاك اليوم، رجع "ميلفيل" من بحثه، ويعلو وجهه ابتسامة بدت منها أسنانه الصغيرة، ومعه الكتاب الذي يحب قراءته مع أمه. قصة لخنفساء صغيرة تعيش في حديقة جميلة. وكل الحشرات التي تجمع طعامها من تلك الحديقة معجبون بشخصيتها الطيبة. فهي الأكثر جمالًا وهدوءًا بين كل الحشرات. ومصدر فخر شديد لأمها. وذات يوم وقفت هذه الخنفساء الصغيرة بالصدفة على أنف الساحرة الشريرة الذي يشبه المنقار. لم يكن "ميلفيل" يعرف أبدًا أن هذه الخنفساء الجميلة قد حولتها الساحرة الشريرة إلى خنفساء قبيحة. فقد اعتادت "هيلين" أن تتجاوز تلك الصفحات التي بها الخنفساء الشريرة الحمراء ذات البقع السوداء والعنكبوت والضفدع المشتركون في بث الذعر في نفوس من بالحديقة التي كانت تتميز بالهدوء، كانت تتجاوزها بلطف شديد خشية أن تُخيف الصغير بمثل هذه الأشياء. وهذا ما جعله لا يرى أنف الساحرة الشريرة كل ليلة. وفي وسط سريره، وأنا أقرأ له القصة، أطلت الساحرة فجأة وهي تحمل عصاها السحرية التي استطاعت بها أن تحول هذا الجمال واللطف إلى حشرة شريرة. في ذلك اليوم، تجاوزت أنا أيضًا تلك الصفحات. رأيت الساحرة بثوبها المرصع بنجوم زرقاء كتلك التي في أحلامنا، وهي تبتسم في بهاء، ابتسامة من يعرف نهاية القصة، وهنا تحديدًا توقفت قليلًا. ولن يستطيع "ميلفيل" أن يتجاور هذه الصفحات من حياته كما كانت تفعل أمه مع صفحات القصة. فليس عندي عصا سحرية. فعندما وقعت خنفساؤنا الجميلة على أنف الساحرة الشريرة التي كانت بحوزتها بندقية كلاشينكوف، حكمت عليها بالموت بضغطة من إصبعها. يجب علي أن أخبره الآن، ولكن كيف ذلك؟ ماما، بابا، ثدي، لم يكن "ميلفيل" يتكلم بغير هذه الكلمات الثلاثة، إلا أنه يدرك كل شيء. فلو أنني صارحته وقلت له: "ماتت أمك في حادثة أليمة، ولن تعود مرة أخرى"، فسيكون ذلك بكلمات تسبق سنه لا تقال إلا في حكايات الكبار، وسيعوقه صغر سنه أن يدرك ما وراء هذه الكلمات، والتي لو تأثر بها لقتلتها مرة ثانية. ولكن الكلمات وحدها لا تكفي. ثار غضبه، وأخذ يدبدب بقدميه، ورمى كتبه على الأرض. كاد أن ينفجر من البكاء. أخذت التليفون لأسمعه الأغاني الذي اعتاد أن يسمعها مع أمه وإصبعه في فمه مستسلمًا بين ذراعيها كالثعبان الأليف. ألصقته بجسدي وثبته بين ساقي ليشعر بوجودي معه ولكي يدرك ما أحمله له. فقد أمضى تسعة أشهر في بطن أمه يسمعها مباشرة بلا واسطة، وتتناغم دقات قلبها مع أيامه، وكانت حركاتها بمثابة رحلة، وكلماتها بمثابة لحن لحياته التي ستبدأ بعد قليل. وددت لو أنه يسمع صوت الحزن الذي بداخلي عبر أذنيه الملتصقة بصدري، ويشعر بأعصابي المشدودة بسبب اللحظة العصبية التي نحياها، ووددت لو أن دقات قلبي تطمئنه وتخبره أن الحياة ستستمر. مددت يدي إلى التليفون لأشغل له قائمة الأغاني التي أعدتها له أمه من قبل. اختارت له أمه هذه الأغاني بعناية وكأنها تشيد جسرًا يربط أذن الصغير بأنغام الكبار. "سلفادور" وأغنيته "الأغنية الرقيقة" وبجوارها أغنية "زمن الحب" ل"فرانسواز هاردي" وأغنية "مهد فريدريك" ل"بورفيل". وكانت تلك ملاحظاتي الأولى عندما فتحت ملف الصور. بدا وجهها غير واضح وبكادر سيء، ليس عليَّ أن أفتح المزيد من الصور حتى لا يخرج "ميلفيل" من السكينة والهدوء التي غمرته من كلام الأغنية. "هيا بنا، يجب أن تنام الآن... أيها الصغير أيها الصغير "فريدريك"... وجدت تلك الموسيقى...

التي وضعتها كهدية لك... في فراشك الصغير". وفجأة أشار إليها في اضطراب شديد، والتفت نحوي وتحولت الابتسامة إلى دموع فاضت من عينيه. أصابني انهيار، وبدأت أشرح له أن أمه ليس بوسعها أن تعود، فقد أصابها حادث خطير، ليس لها ذنب فيه، وأنها تود لو كانت معك، ولكن يستحيل عليها ذلك. بدأ في البكاء بطريقة لم أرها من قبل. خرجت دموعه مختلطة بالألم، والخوف، والضياع، واضطراب العواطف. وهكذا، كانت هذه أول أحزانه.. أول أحزانه الحقيقية. تمر الصور أمامنا، وأصبحت الموسيقى أكثر قسوة. فكلانا كطفل ينحني مقتربًا من الصندوق الموسيقى الذي يعزف لحن حياتنا، وسكبنا ما تبقى لدينا من دموع. من الطبيعي أن تكون حزينًا، فعندك ما يجعلك كذلك، فأباك أيضا يصيبه الحزن عندما لا تسير الأمور على ما يرام، تعال لترى الحزن الذي أنا فيه وسنكمل مشاهدة الصور معًا. انتهت الأغنية. "...لا تنسَ هذا اللحن... الذي أعطيته لك يومًا ما... بكل حب..." لكن الذكريات تمحو شيئا فشيئا ما نشعر به من افتقاد شخص عزيز. وأصبح استعراض الصور مجرد لعبة: ها هو "ميلفيل"، وها هي ماما. وكنا نعلق على الصور بنفس الطريقة وبنفس الكلمات. انتهت قصة الخنفساء الصغيرة بعودتها إلى طبيعتها الأولى كأجمل خنفساء في الحديقة، وكانت أمها تبكي فرحًا بعودة صغيرتها الجميلة. إخباره بالحقيقة لم يكن سوى الخطوة الأولى في طريق طويل ينتظرنا. انتهى أمر الساحرة الشريرة، ولكن سيجب عليَّ في كل مرة أن أوضح له لماذا لا تنتظره أمه في نهاية قصته كما فعلت أم الخنفساء مع صغيرتها. قطعت هذه الصفحة من الكتاب، وثبتها بجوار صورة لها، وعلقتها في غرفته. ففي هذه الصورة يظهر "ميلفيل" وهو يتعلق بكتفيها وهو نائم على ظهرها، ويعلو وجهها ابتسامة تشبه شمس الربيع، وخصلة من شعرها تسقط على عينيها. تنظر إليَّ، فتجدني بلا قيمة وبلا هدف، تتجه نظراتها نحوي وكأنها تكلمني وعينها تحكي لحظات السعادة العفوية التي عشناها معًا نحن الثلاثة طوال تلك السبعة عشر شهرًا الماضية.

...كان من الممكن أن

نوفمبر الساعة 9:30 صباحًا 16

ميلفيل" في الحضانة. في صباح هذا الإثنين كنت في مقهى يُسمح فيه بالتدخين بالحي الخامس عشر في باريس،" بدت وجوه الناس حزينة وأحلامهم محطمة وعيونهم شاخصة أمام شاشة التلفزيون المثبتة على قناة "بي إف إم" الإخبارية حيث يبحثون عن أي شيء لإثارة الحوار الناقم على الأوضاع كزيادة الضرائب والخسائر التي خلفتها الإنفلونزا. وعلى الرغم من أننا في يوم الإثنين إلا أنّ الناس يتكلمون عن يوم الجمعة. "قهوة إسبرسو!". عليّ أن أذهب إلى مصلحة الطب الشرعي لأرى "هيلين" هذا الصباح. يجلس إلى جواري رجلان أعمارهم ما بين الخمس والأربعين والخمسين، عيونهم مليئة بالحزن من كثرة ما يرونه من أخبار مؤلمة، وكانوا يتناقشون في أمر وددت لو لم أسمعه. لكنّ هذا غير ممكن، فعندما تجلس في مقهى لا يمكنك تجنب سماع كلام الآخرين. وكما هو معتاد على المقاهي، يُسر المرء عندما يجلس وحيدًا ليتناول فنجان من القهوة والناس من حوله يخوضون في حياة الآخرين. واليوم جاء الدور عليّ للخوض في حياتي الخاصة. حولت بصري حتى لا أسمع ما يقال، وعلى الرغم من ذلك وصلت إلى مسامعي بعض الكلمات التي تجاوزت صوت بخار ماكينة الإسبرسو. "... يجب ألا يموت كل هؤلاء الناس هباءً...". وهل يموت أحد من غير سبب؟ فربما كان سائقًا متهورًا غفل عن الفرامل، أو ورمًا خبيثًا أو قنبلة نووية، فكل ذلك لا يهم، الشيء الوحيد الذي يهمني هو أنها لم تعد على قيد الحياة. فالأسلحة، والذخيرة، والعنف، كل ذلك لا يعدو كونه ديكورًا عامًا للمشهد الذي انتهى فعلًا بموتها. القليل من الناس يدركون أنني لا أقف طويلاً مع ظروف وملابسات موت "هيلين"، ويتمنون لو أنني نسيت أو تجاوزت الأمر. إلاّ أنني لن أعفو، ولن أنسى ولن أتجاوز الأمر سريعًا كما يظنون. فعندما يعود كلٌ منا إلى حياته، سنتعايش معًا وسيحدث ما يتمنون. إلا أن هذه القصة ستصبح قضيتنا ولا مجال للتملص منها. ثم كيف لي أن أنسى وما زال جسدها النحيف جثة باردة، وما زال أثر قبلتها الحارة على شفتي، وما زالت كلماتها ترن في أذني كلحن جنائزي تقشعر له الأبدان، عليّ أن أعانقها لأكون جزءًا من قصتها. إن وجود الجاني يجعله بكل تأكيد متنفسًا نصب عليه سخطنا، وفرصة للهروب من المعاناة الحقيقية التي نحياها. فكلما كانت الجريمة شنيعة والجاني متلبسًا بجريمته كانت أسباب الكراهية مشروعة، وينصرف تفكيرنا إليه حتى لا نفكر فيما ألم بنا، ونسلط عليه كراهيتنا حتى لا نكره حياتنا، ونُسر لموته حتى لا يسر هو بموت من بقي منا. .فربما تكون الظروف المشددة للعقوبة هي أقل الإجراءات أثرًا وربما فُرضت كإجراء قضائي أو تقديرًا لحجم الكارثة

ولكنهم لم يلقوا بالًا لدموع الغضب التي لم تجد من يجففها. وعندما لا يجد المرء أحدًا يلقي عليه باللوم يظل وحيدًا مع أحزانه. وأعتقد أنني كذلك، فأنا وحيدٌ مع طفلي الصغير الذي سيسألني فيما بعد عما حدث قي تلك الليلة. ماذا عساي أن أقول له لو أنني ألقيت بمسؤولية ما حدث على عاتق شخص آخر؟ وماذا لو ذهب لهذا الآخر ليفهم منه الأمر؟ على كل حال كان الموت بانتظار أمه في تلك الليلة، وهؤلاء لم يكونوا سوى سفراء الموت. فقد شتتوا شمل حياتنا المنسجمة بسيل رصاص بنادقهم الآلية. وإذا ما حاولنا لم شمل هذه الأجزاء المبعثرة مرة أخرى فلن ننجح أبدًا، سيظل هناك دائمًا شخص غائب عن المشهد، لم يتبق إلا أنا وهو، ولكن علينا أن نملأ هذا الفراغ. فهي ستظل معنا دائمًا ولكن بطريقة غير مرئية. فبإمكاننا أن نرى وجودها في أعيننا، في فرحتنا التي سيحرقها ألم فراقها، وفي عروقنا التي سيسير فيها دموعها. لن تعود حياتنا أبدًا إلى ما كانت عليه في السابق. ولن نبني حياتنا أبدًا على عداء أحد. وستمضي حياتنا قدمًا بما يصب في مصلحتنا. "فنجان آخر من القهوة لو سمحت، وسأدفع الحساب!". قال لي أحد الموجودين: -كل ما حدث يدعو للجنون... -... "لم يعد لدي الوقت لأنشغل بمثل هذا. فزوجتي لن تكون معنا في ."عطلة نهاية هذا الأسبوع، وكان الصغير برفقتي. ولكنني سألتقي بها الآن

اللقاء

نوفمبر الساعة 10 صباحًا 16

كان من الواجب أن يتسلم هؤلاء الأشخاص الذين نود أن نتجنب الحديث معهم زيًا يميزهم. ففريق الدعم النفسي الذي رأيته هذا الصباح كان يرتدي ذلك الزي المميز، مما سهَّل عليَّ تجنبهم. لا أريد التحدث إلى أحد منهم، انطباعي عن هؤلاء أنهم سيسلبونني حزني ويمزجونه بعبارات مصطنعة مدهونة، ليصبح بعدها شعورًا مشوهًا، بلا إحساس، وبلا رونق، وبلا معنى. حينها أعطيت الأماكن ألوانا ترمز إليها. الأزرق يرمز للشرطة التي تسمح بالدخول. الأصفر الفسفوري يرمز إلى الدعم النفسي الذي عليَّ أن أتجنبه. الأسود يرمز لمصلحة الطب الشرعي حيث سأراها هناك. أسرعت نحو من يرتدي سترة زرقاء الذي اقتادني بدوره إلى من يرتدي سترة سوداء، وهذا الأخير اقترح عليَّ الذهاب إلى من يرتدي السترة الصفراء الفسفورية، لكنني أبديت رغبة في عدم رؤيته. كان برفقتي أم "هيلين" وأختها. الطريق إليها لا يريد أن ينتهي، فتلك الأمتار القليلة تبدو كأنها بلا نهاية. سقطت الأمطار الجليدية على وجوهنا كأنها أسهم مدببة. كل شخص قابلني في هذا المكان يؤدي دوره حرفيًا كما كتب له، وكأنه ممثل يؤدي دورًا اعتاد القيام به في عرض مسرحي جنائزي بلا روح. "الموت" هو عنوان ذلك العرض الجنائزي. وهذه المشية التي نمشيها ليست للمراسم الجنائزية، هذه اللحظة لم تأت بعد. إنه يوم سعيد لأنني سألتقي فيه بحبيبتي. بدت أرضية المكان قديمة من الداخل، وكذا المظهر العام لموظفيه. الجو هنا بارد، اقترح عليَّ الكثير أن أجلس منذ أن وصلت، لكنني قابلت كل ذلك بالرفض خشية ألَّا أستطيع القيام ثانية إذا جلست. فانتظرت واقفًا. هناك بعض الإجراءات الإدارية التي عليَّ أن أنهيها في بعض المكاتب. يمر من أمامنا عائلات الضحايا، فقد سبقنا نحو خمسة عشرة أسرة، خرجوا جميعًا وقد أصيبوا بحالة انهيار. "هل جئتم لرؤية "لونا -هيلين مويال"؟". جاء الدور علينا. كانت الصالة التي كنا نمشي فيها ذات ديكور أكثر دفءًا، وغرفة انتظار الموتى على عكس ما كنت أتصور. بالرغم من تلك الألواح الخشبية التي تغطي الغرفة بأكملها سمعت خلفها دماء الموتى وهي تسيل. من لحظة إلى أخرى، كنت أتخيل خروج الدم من بين الألواح ليغمرنا شيئًا فشيئًا من رؤوسنا إلى أقدامنا. لنغرق في حمام من الدم، كحمام الدم الذي غرقنا فيه من قبل. تحدثت إلينا سيدة في ريعان الشباب، يبدو من نبرة صوتها أنها فعلت ذلك مرارًا. "اللحظات العصيبة... الظروف المخيفة... عمل البوليس...". هذه الكلمات وغيرها من عبارات الشفقة يبدو أنها قالتها قبل ذلك كثيرًا. لحظات سكوتها وحركات جسدها محسوبة من قبل، وابتسامتها كأنها تخرج من كتاب عنوانه: "الكتاب المصور للحانوتي الصغير".

الفصل الخامس:

."إخبار عائلة الميت"

وما أنا إلا واحد من هؤلاء. كنت أسمعها من غير تركيز ف"هيلين" موجودة هنا وقريبة مني، أشعر بها، لا أريد إلا أن أراها. أم "هيلين" وأختها يفهماني ويعرفان أنها هنا، ويدركان أيضًا أن الأولوية لنا نحن الاثنان. اللحظة الأخيرة لنا نحن الاثنان، أنا وهي فقط. ليس بصفتها ابنة فلانة، أو أخت فلانة، أو أفضل صديقة، أو تلك التي قُتلت في مسرح "باتاكلان". أريدها لي وحدي، لا يشاركنا أحد. كما كانت كذلك من قبل. كنا نحن الاثنان كمكعبين من البلاستيك كتلك التي يستمتع الأطفال بتجميعها الواحدة في الأخرى. بدأت قصتنا في الواحد والعشرين من يونيو في ليلة حفل موسيقي. كما هو الحال في بداية كل قصص الحب العظيمة، كنت أعتقد أنها لا تريد شخصًا مثلي. فقد كانت غاية في الحسن والتحضر والثقافة، لا مثيل لها في كل شيء، ومقارنةً بها كنت أنا لا شيء. أمسكت يدها وتوارينا بين الحضور والضجيج. كنت أعتقد حتى اللحظة الأخيرة أنها ستهرب مني. ثم انتهى الأمر إلى أن تعانقنا. مرت الأمور سريعًا، أخبرتها أننا سنذهب إلى "نيويورك"، وسنقضي الوقت كما يحلو لنا، وسيكون حظي رفيقنا في تلك الرحلة. في نهاية الأمر، أخبرتني أنها تحبني. كغيرها من قصص الحب. كنا نحن الاثنان على درجة من العقل جعلتنا ندرك كم نحن محظوظون بهذا الحب، وكنا على درجة من الجنون جعلتنا نراهن بكل شيء من أجل هذا الحب. فقد كان هذا الحب هو ثروتنا. انفتح الباب. "أخبرني عندما تكون جاهزًا!". هي موجودة هنا. تقدمت نحوها. نظرت حولي، تأكدت أننا وحدنا. فهذه اللحظة لنا. يفصل بيننا لوح من الزجاج. ضغطت عليه بكل قوة. يمر شريط حياتنا أمام عيني. شعرت أن حياتي بدونها قد انتهت. بدت "هيلين" كالقمر، سمراء ذات بشرة نقية، وعينان واسعتان كعين البومة الخائفة، وابتسامة تشعر معها أنك تملك العالم بأسره. ذكرتني تلك الابتسامة بابتسامتها يوم حفل زفافنا. لم تكن أجمل لحظات حياتنا تلك التي خلدناها في ألبوم الذكريات. أتذكر كل اللحظات التي عشناها في حب ووئام. ذات مرة، رأينا زوجين مسنين فتمنينا أن يطول العمر بنا حتى نصبح مثلهما، وبعدها أخذنا في الضحك حتى علا صوتنا. كنا نسترخي تحت أشعة الشمس الجميلة في كل صباح مشرق. كانت اللحظات الشاعرية التي لا يمكن أن نصفها أو نحكيها في كلمات، هي الأكثر جمالاً وتمتلئ بها ذاكرتي. ما زالت "هيلين" جميلة كما كانت دائمًا. عندما تُغمض للميت عينيه يبدو كأنما دبَّت فيه الحياة. بدت تمامًا كما كنت أراها تستيقظ كل صباح. تمنيت أن أرقد بجوار جسدها الضعيف لأدفنها، وأقول لها أنها أجمل امرأة قابلتها في حياتي. تمنيت لو أغلق عينيَّ أيضًا وأنتظر "ميلفيل" حتى يأتي وينادي علينا، ويتعلق بالفراش المبعثر. دائمًا ما كانت "هيلين" تسألني: هل سيقاسمني أحد حبها؟ وهل بمجرد وصول طفلنا سأحبها بنفس الدرجة؟ لكن بعد ولادته، لم تعد تطرح عليَّ هذا السؤال. بدأت في البكاء، وأنا أقول لها أحب أن أبقى هنا لساعة أخرى، أو يومًا، وربما حياتي كلها. لكن عليَّ أن أغادر، فالقمر يجب أن ينام. طلعت شمس السادس عشر من نوفمبر على حكايتنا الجديدة "كان يا ما كان...". حكاية أب وابنه استيقظا فوجدا أنفسهما بمفردهما، دون مساعدة ."...ذلك القمر الذي تعهدا له بالولاء. "سيدي، عليك أن تتركها الآن

وتبدأ الموسيقى

نوفمبر الساعة 11 صباحًا 16

خرجت من مصلحة الطب الشرعي لتوي. فرؤيتها جعلتني في حالة جيدة. مر يومان وهي غارقة في ظلام دامس بمفردها منذ أن هجم الظلام على باريس بفعل الإرهابيين. أظلمت مدينة النور حين أغمضت "هيلين" عينيها. تلك العينان الواسعتان التي ترى بهما العالم بأسره. تلك العينان الواسعتان التي لم تعد قادرة أن ترى بهما ابنها وهو يصحو من نومه. منذ أن غادرت هذا المكان لا يشغل فكري إلا الذهاب إلى "ميلفيل" في حضانته لأقابله وأخبره أنني رأيت أمه وأحضرتها معي. أرجعت له أمه التي لم تعد مفقودة، فهي في قبضة يدي، وستعود معنا إلى البيت. لكن عليَّ أن أجلس مع عائلة "هيلين" لنشرب فنجانًا من القهوة ونتشاور حول بعض التدابير مثل؛ الجنازة والشرطة والدعم النفسي وكل هذه الإجراءات الروتينية المقيتة التي تفسد علينا حالة الحزن التي نعيشها. هذا الحزن الذي نتخيله خالصًا وبعيدًا عن كل هذه الأمور المادية. فطبيعة عملية الدفن أن تأخذ مجراها سريعًا. على كل حال لم يعد لدينا الوقت لتقييم ما يحدث لنا، فموكب المعزين بزيهم الأسود بدأ بالفعل. "يجب عليك أن تذهب إلى دار الجنائز، إذا أردت الذهاب فبإمكاني أن أساعدك في ذلك". خيم الصمت. منذ مساء الجمعة، فقدت القدرة على الكلام ويرهقني حتى التلفظ بالعبارات القصيرة التي تزيد عن ثلاث كلمات. فلم أعد أستطيع تركيب مجموعة من الكلمات لأكون فكرة. ولم يعد لدي أدنى قدرة على التفكير. لم أكن مشغولًا إلا بها فلن نتقابل ثانية، وعليَّ أن أعتني ب"ميلفيل"، أما بقية الأمور فقد اختلط بعضها ببعض بسبب الضوضاء التي أصابت رأسي. كان الصمت إجابتي الوحيدة على كل الأسئلة البسيطة. كنت أحيانًا أهمهم بأشياء يفهم بها من حولي أنني جائع، أو أريدهم أن يبقوا معي هذا المساء، أو أريد أن أشعل سيجارة. منذ أن قابلتها بدأت الضوضاء التي أصابت رأسي في السكون، وبدأ الكلام يعود إلى لساني. "عليك الانتباه حتى لا يحتال عليك أحد، قارن الأسعار، يمكننا أن نأتي معك إذا شئت! -سأعتني بالأمر وحدي. -هناك من يستغل الموت ليحتال على الناس!". هيا بنا. يجب عليَّ أن أذهب لأحضر الصغير. ركبنا السيارة، وفي الطريق إليه، لاحظ أخو "هيلين" وهو يقود السيارة أن قدميَّ تضرب بعصبية أرضية السيارة، فطمأنني قائلًا: "لا تقلق سنكون في الحضانة في الموعد المحدد". لم يكن التوتر الذي سبَّب هذه الحركات ناتجًا عن التأخر عن موعد "ميلفيل"، بل كان بسبب هذه الكلمات التي فرضت علينا إيقاعها، الواحدة تلو الأخرى أو الكل جملة واحدة. تدخل هذه الكلمات في رأسي، ثم يخرج البعض منها ويبقى البعض الأخر لتنادي على بعضها البعض، وكل واحدة منها تبدأ في عزف لحنها الخاص. وقبيل أن تبدأ الأوركسترا في عزف لحنها الأكبر، نسمع أصواتًا مشتتة ومتنافرة وأخرى منفردة، ثم بإشارة واحدة تنسجم مع بعضها ثم يعلو صوتها شيئًا فشيئًا حتى نصل إلى الصمت المطلق، وهنا تبدأ الموسيقى في العزف. غمرتني السعادة عند لقائه. لكن عندما فتحت باب الحضانة اصطدمت ابتسامتي بجيش من الوجوه العابسة والأذرع المرتخية. يقف "ميلفيل" في وسط ما يشبه ذلك الجمع الغفير من جنود نابليون العائدين من الحرب على روسيا. في ذلك اليوم، كان "ميلفيل" هو الوحيد الذي بإمكانه أن يبادلني الابتسامة، والوحيد الذي بإمكانه أن يرى أمه معي. رجعنا إلى المنزل من نفس الطريق -الذي يحبه -المليء باللوحات الإرشادية، بينما كان له ميول أخرى تجاه الكتب، والموسيقى، وفتح وغلق الأبواب بطريقة مفرطة. أشار بيده إلى اللوحة المكتوب عليها: "ممنوع الوقوف!". ثم رفعها مرة أخرى بعد خمسة عشر مترًا... مشيرًا إلى نفس اللوحة "ممنوع الوقوف!". وهكذا استمر بقية الطريق... المنزل، الغداء، تغيير الحفاضة، البيجامة، القيلولة، الكمبيوتر. تخطر هذه الكلمات على فكري باستمرار، فلا تزال تحل بتفكيري ثقيلة دون أن أتعمد التفكير فيها. تفرض نفسها عليَّ، لم يعد أمامي إلا أن أتناولها بعقلي. اخترت كل كلمة من هذه الكلمات بعناية، مرتبطة ببعضها، أو منفصلة أحيانا، بعد بضع دقائق كوَّنت المقال الذي يحمل عنوان: "لن أمنحكم كراهيتي". ترددت لبعض الوقت قبل أن أنشره، لكنَّ أخي دفعني لفعل هذا الذي لم أعد أفعله منذ يومين. "الغداء جاهز. تعال لتأكل!". لم يكن لدي وقت لأفكر في ذلك المقال، ولم تكن لدي الرغبة في الرجوع إليه مرة أخرى. تواصلت مع أصدقاء "هيلين" ممن ليس لديَّ أرقامهم، عبر الفيسبوك الذي كان قيد الاستخدام. "بم تفكر؟"، نسخت المقال من

الكمبيوتر ولصقته على صفحتى، ثم ضغطت على خيار النشر، ومن تلك اللحظة لم تعد هذه الكلمات أمرًا خاصًا بي وحدي.

"لن أمنحكم كراهيتي"

مساء الجمعة سرقتم حياة إنسان استثنائي، حب عمري، أم ابني، ولكنني لن أمنحكم كراهيتي. لا أعرفكم ولا أريد أن أعرفكم، فأنتم بالنسبة لي أرواح ميتة. وإذا كان هذا الإله الذي تقتلون من أجله بشكل عشوائي، وهو قد خلقنا على صورته، فإن كل رصاصة في جسد زوجتي هي جرح في قلبه. لا، لن أمنحكم هدية كرهي لكم، لقد أردتم ذلك، ولكن الرد عليكم بالكره والغضب يعني الاستسلام للجهل الذي جعلكم على ما أنتم عليه. تريدونني أن أخاف وأن أراقب من يعيشون معي في نفس الوطن بعين الريبة، وأن أضحي بحريتي من أجل أمني وسلامتي، خسئتم! فحياتي ستستمر كما أريد رغمًا عنكم. رأيت زوجتي أخيرًا هذا الصباح بعد انتظار دام أيام وليالي. كانت جميلة كما كانت عندما تركتني مساء الجمعة، وكما وقعت مجنونًا في حبها قبل اثنتي عشر عامًا. من المؤكد أن الحزن يدمرني -أعترف لكم بهذا النصر التافه -ولكن الحزن سيدوم طويلًا، لأنني أعرف أنها سترافقنا في كل يوم وسنلتقي في جنة الأرواح الحرة التي لن تدخلوها أبدًا. نحن اثنان، أنا وابني، لكننا أقوى من كل جيوش العالم. ليس لدي المزيد من الوقت لكم، عليَّ أن أعتني بطفلي "ميلفيل" الذي يستيقظ الآن من نومه. فعمره لم يتجاوز السبعة عشر شهرًا، سيتناول وجبته كما تعود في كل يوم، ثم سنلعب معًا كما تعودنا في كل يوم. هذا الطفل سيتحداكم بأن يعيش سعيدًا وحرًا طوال حياته ولن يمنحكم حقده أبدًا.

المتحكم في الوقت

نوفمبر الساعة 10:45 صباحًا 17

دق جرس الباب. لست في انتظار أحد. نظرت من العين السحرية. فوجدت على الباب شخصًا لا أعرفه. تبرز أذناه بشكل غريب، مما جعل وجهه مميزًا. بينما عيناه، وفمه، وأنفه، وبقية وجهه تجعله شخص لا يثير الانتباه. شأنه شأن كل الناس إلا أنه في نفس الوقت شخص مختلف. فتحت له الباب. "صباح الخير سيدي...". يرتدي زيًّا قديمًا رمادي اللون، يحمل حافظة أوراق في يده اليمنى وعليها ورقة. أطلتُ النظر إليه من رأسه إلى قدميه، لم يكترث بما أفعل. أطال النظر إليَّ وبدا عليه بعض الضيق. ثم أنهى الموقف قائلًا: "جئت لقراءة عداد الكهرباء من شركة كهرباء فرنسا". كان من الواجب عليَّ أن أتذكر موعد زيارته من خلال الإخطار المتعلق بذلك. فقد علَّقته "هيلين" في مكان واضح على الثلاجة. مررت عليه كثيرًا، لكنني في الفترة الأخيرة أصبحت لا أرى شيئًا في هذا العالم. "هل يمكنني أن أدخل؟". تخيلت لو أن يومًا ما توارى القمر في السماء، وانحصرت مياه البحر، ولم تعد تهب الريح، ولم تعد الشمس ترغب في الشروق. لكن لم يحدث شيئًا من كل هذا. استمر العالم في الحركة، والعدادات لا بد أن تُقرأ. دون أن أتكلم، أفسحت له الطريق. رأيته يتحرك نحوي بحذائه الضخم. لم أدله على الطريق. فهو يعرف ماذا سيفعل. فربما قام بهذا العمل عشر مرات هذا اليوم، وربما ألف مرة في الأسبوع، ولا يقوم بغير ذلك طيلة حياته. نظرت إليه من بعيد وهو يقوم بعمله. أردت لو أخبره أنه أتى في ظرف غير مناسب، وأنه غير مرحب به في هذا الوقت، فمجيئه يمثل صرخةً في أذني أن الحياة في الخارج استأنفت حركتها. لكنني لم يكن لدي رغبة في سماع ذلك. منذ يوم الجمعة، أصبح "ميلفيل" هو المتحكم الوحيد في الوقت. فهو ينظم إيقاع حياتنا كأنه قائد أوركسترا. فهو وحده الذي يحدد متى نستيقظ، متى نأكل، متى نذهب للقيلولة، متى ننام. دون أن يضع في اعتباره عامل الوقت، فهو من يقرر متى على الكون أن يستيقظ، وبدوري طوعت نفسي على ذلك حتى لا تتأثر حياته بأي تغيير. في كل يوم كنت أعزف نفس السيمفونية، وحتى يخرج اللحن على وتيرة متسقة ولا تسقط منه جملة موسيقية التزمت بالوقت الذي يحدده بندول الإيقاع. الاستيقاظ. الأحضان. الإفطار. اللعب. النزهة. الموسيقى. الغداء. الحكايات. الأحضان. النوم. الاستيقاظ مجددًا. التصبيرة. النزهة. التسوق. الموسيقى. الحمام. العناية بصحته. العشاء. الحكايات. الأحضان. النوم. لم أجد طريقةً أخرى لأخبره أن الحياة ستستمر رغم أي شيء. التمسك بعاداتنا اليومية هو طريقنا للهرب من كل ما هو مخيف وجميل. لكنَّ الرعب الذي أصابنا منذ تلك الليلة، والشفقة التي لازمتنا في كل مكان، والجرح الذي يريد الناس أن يضمدوه. كل هذه الأشياء التي أردنا أن نتخلى عنها قد ملأت حياتنا بالفعل. أحيانا تسقط الحواجز في هدوء. "هيا يا "ميلفيل"، حان وقت الوجبة الخفيفة"، يلحظ "ميلفيل" خلف هذه الكلمات ألمًا بداخلي. يخفق قلبي بسرعة، فهو يعرف أن أباه يتألم. يرى أن هناك فجوة ظهرت في حياتنا. يخرج منها وحشٌ غير مرئي يجرنا إليها. فنبكي وتنغلق علينا هذه الفجوة شيئًا فشيئًا. لنبقى دائمًا فيها نحن الاثنان: قائد الفرقة الموسيقية وعازفه الوحيد. وندور في هذا الفلك كل يوم بلا توقف. هذا الرجل الذي يفحص العداد في المطبخ هو بمثابة نغمة نشاز وسط سيمفونية موسيقية. كنت أنظر إليه وأنتظر أن يفهم أن وجوده غير مناسب. اكتفى هذا الشخص بنقل الأرقام بعناية على الورقة التي معه. أردت أن أطرده خارج البيت. لكنني لم أفعل ذلك. بقيت أمام الباب منحنيًا أمام هذا العالم المستمر في حركته، أمام هذه الحياة التي اخترقت عالمنا الخاص رغمًا عنا، أمام هؤلاء الأغراب الذين تذكرني رؤيتهم أنه لا مجال أمامي للاختيار وأنني ما زلت من الأحياء. "انتهى الأمر يا سيدي، كل شيء على ما يرام". أغلقت الباب خلفه. بدأ اللحن من جديد. يجب أن أذهب إلى حضانة "ميلفيل".

الوجبات المنزلية

الساعة 11:30 صباحًا

أوقفتني مديرة الحضانة أنا و"ميلفيل"، السيجارة في فمي(سكَّاتة الأطفال) في فم "ميلفيل"، قبل أن نخرج من الحضانة. "تركت لكم والدة "سالوميه" بعضًا من الحساء المنزلي...". بعد وفاة "هيلين" انهالت عليَّ مساعدات الكثير من الناس ممن لا أعرفهم ليتولوا أمر ابني "ميلفيل" بل وتلقينا دعوات كثيرة من شتى بقاع الأرض لقضاء الإجازات عندهم، إضافةً إلى الهدايا التي تلقاها "ميلفيل" فقد أرسلوا إليه جوارب، وقبعات، وهدايا، وشيكات لم أفكر قط في استخدامها أو الاستفادة منها. أما أمهات الحضانة فقد كان اهتمامهنَّ أوضح ما يكون منذ صبيحة يوم الثلاثاء إذ لم يستطعن، بكل ما يحملنه من مشاعر أمومة، أن يتخيلن وجود رجل وابنه في منزل كبير مثل منزلنا بدون أم، واستطعن أن يتوصلن إلى طريقة يساعدنني بها أنا و"ميلفيل" دون أن نشعر بذلك. كنت أسمع في كل يوم أدخل فيه إلى الحضانة وأنا أدفع الباب أمهات الحضانة يقلن: "تُرى أم مَنْ هي التي ستدخل علينا الآن من الباب؟"، إنَّه والد "ميلفيل". ولأن الأطفال في الحضانة لهم نفس العمر تقريبًا، ولأنهنَّ يعرفن كم هو مرهق وشاق تربية طفل رضيع، ولأنهنَّ يعرفنَّ جيدًا تلك العلاقة القوية التي تنسجها الأم بمشاعرها مع أطفالها، لم يروا فيَّ إلا رجلًا، لم يروا فيَّ إلا الأب الذي لن يكون يومًا أمًا أو يقوم بما تقوم به الأم، الأب الذي لن يستطيع ولن يعرف أن يفعل كل شيء بمفرده مع طفل رضيع مثل "ميلفيل"، رأيت القلق في عيونهنَّ، في الوقت الذي يتخيل فيه الجميع أنني سوبر-بابا، هنَّ يعرفن جيدًا أنني أب عادي جدًا. "هل أضع لك الحساء في حقيبة؟". توقعت أن أجده إناءً زجاجيًا صغيرًا يكفي "ميلفيل" لليلة واحدة، ولكنَّ المفاجأة أنه إناء ضخم من الآنية التي تستخدم لحفظ الأطعمة مملوء حتى الفوهة بحساء الخضروات: جزر، وبطاطس، وقرع مخلوطين خلطًا جيدًا. "غدًا، والدة "يانا" هي التي ستصنع لكم شيئًا ما". وهكذا بدأت الحكاية. عدنا إلى المنزل، أنا و"ميلفيل"، ومعنا إناء الحساء، وفي اليوم التالي ذهبت لإحضار "ميلفيل" من الحضانة وعدنا بإناء آخر ولكن هذه المرة الحساء من الجزر، والقرع، والسبانخ. زاد اهتمام الأمهات بنا، العديد والعديد من الاقتراحات من أجل إعداد طعام لطفل معدته صغيرة لم يتعدَّ عمره سبعة عشر شهرًا. يبدو أن عليهن تنظيم .أنفسهن أكثر من ذلك، كلٌ منهن تنتظر دورها

في يوم الخميس، خرجت من الحضانة ومعي الحقيبة الصغيرة المعتادة، لكن هذه المرة ليست بإناء واحد بل إناءين، كانت الحقيبة هذه المرة من إعداد أم "مانون" والتي غطَّت الإناء الأول بإحكام بقطعة مربعة من القماش كتبت عليها محتويات الإناء: جزر، وقرع، وفاصوليا خضراء. وفعلت نفس الأمر بالإناء الثاني، لكنها وضعت هذه المرة ورقة بدلًا من قطعة القماش كتبت عليها المحتويات أيضًا: "بروكلي مهروس، وبطاطس، وذرة، وثوم، ولحم مفروم". كان عليها أن تفكر عدة مرات، وتختار بعناية ألوان الأغطية وكذلك الملصقات الصغيرة المكتوب عليها المحتويات. لكن يبدو أن كل ما كانت تريده هو أن تعطينا هذه الأطباق الصغيرة مملوءة. وزادت على ذلك أن وضعت تحت هذا الطبق طائرًا مصنوعًا من الورق بطريقة "الأوريجامي". كأنها أرادت أن تكون معنا لحظة فتح الحقيبة للتأكد من أن كل ما فعلته من أجل الصغير التزمت أنا به، حتى أخر عبارتها: "بالهنا والشفا يا"ميلفيل"! من "مانون" ووالدتها". أما إناء يوم الجمعة الصغير فقد كان من والدة "فيكتور"، التي تجيد عمل كومبوت التفاح والكمثرى المغطى بطبقة خفيفة من الكراميل، ودائما ما كانت تضع -مع الوجبات-ورقة بها كلمات رقيقة مثل: "عزيزي "أنطوان" و"ميلفيل" يمكنكما الاعتماد عليَّ". يوم الجمعة هو أيضًا اليوم الذي يجب عليَّ فيه إعادة الأطباق الصغيرة. كانت مديرة الحضانة هي التي تتولى تنظيم الوجبات مع المتبرعات، وتذكرني دائمًا بالترتيب. يجب عليَّ غسل الأواني، وتجفيفها، ثم وضعها في الحقيبة الصغيرة التي أتسلمها مرة أخرى يوم الإثنين بعد الخروج من الحضانة. كانت الأمور تسير على هذا النحو. ودون أن أطلب شيئًا، كانت أمهات الحضانة قد ألزمن أنفسهن أن يحصل "ميلفيل" كل يوم على وجبات صغيرة ممزوجة بنكهة حب الأم. عندما كانت "هيلين" حاملًا، أخذنا عهدًا على أنفسنا أن نكون أفضل أب وأم في العالم.

وعقدنا العزم على أن نكون والدين بكل ما تحمله الكلمة من معنى، ولم نهتم بأمور المطبخ. يبدو أن "ميلفيل" قد اعتاد على الوجبات الصغيرة التي كنا نشتريها من السوبر ماركت. لذلك كانت هناك صعوبة بالغة في إقناعه بتناول حساء والدة "سالوميه"، فكان ينتهي به الأمر بأن يلقي الملعقة الأولى على الأرض، والثانية على البيجامة، والثالثة والأخيرة على الحائط. الحقيقة، أن "ميلفيل" لم يتناول أبدًا أيّ من هذه الوجبات، فقد كنت أفرِّغها في الحوض، وبعد أن أغسل الأطباق والأواني كنت أعيدها إليهنَّ مؤكداً لهنَّ أن "ميلفيل" أكل كل الطعام. وكانت إحداهنَّ تسألني: "هل أحب "ميلفيل" الحساء الذي طهوته له؟". بعد أن كنت أضغط على نفسي بإظهار الإعجاب والاستحسان، وبعد الضيق قليلًا بسبب الكذب الذي كنت أقوم به(رغم أنه لن يضر أحد)، كنت أتكلف صنع ابتسامة عريضة كانت تسعدهنَّ كثيرًا وأخبرهن: "بالطبع، لقد التهم الحساء كله"، في الوقت الذي كان فيه "ميلفيل" يصرخ لعدم رغبته فيه. تركت هذه اللعبة تستمر وتستمر لأنهنَّ كنَّ بحاجة إلى ذلك، كانت لديهن مشاعر فياضة في أن يغمرن طفلًا بحنان الأم الذي يفتقده تمامًا، كنت آخذ الحساء منهن ولم يكن يهمني أيأكله "ميلفيل" أم لا، كنت أعي جيدًا أنه إذا لم يستطع "ميلفيل" أن يشعر بحب أمه وحنانها فعلى الأقل لن أحرمه من حنان وعطف بقية الأمهات المتجسد في أطباق الكومبوت. لم يكن لديَّ الشجاعة أن أخبرهن أن "ميلفيل" لم يتناول ولم يستسيغ أبدًا وجباتهن التي يصنعنها له خصيصًا، أو أن هذه الوجبات يمكن أن تحل محل وجبته التي اعتاد عليها. ربما لأن هذه الوجبات – رغم أنه لا يأكلها بل كنت أرصها رصًا على البوفيه – كانت تغذي قلوبنا بحنان وعطف الأمومة الذي كنا نفتقده.

"صديقي "فلان

نوفمبر الساعة: 9 مساءً 19

هذا المساء، كتب لي صديقي "فلان"، لم نتحدث منذ أن أخبرته بوفاة "هيلين". كان يرغب في رؤيتي. انتظرته على إحدى الطاولات في شرفة أحد المقاهي الباريسية. وكالعادة في ليلة عطلة نهاية الأسبوع يملأ الضجيج المقاهي الباريسية. نظرت في الشارع فلمحت ظله من بعيد في نهاية الشارع، وكان يعرج قليلًا بسبب جرح أصابه في حادث تلك الليلة. فهذا الجرح كان بمثابة شهادة على أحداث ليلة الجمعة المرعبة. استجمعت قواي وأخذت مظهر الجدية، ولكن على الفور تراجعت عن رأيي في لعب هذا الدور، فلم يكن لدي رغبة في التمثيل عليه. أخذته في أحضاني ويعلو وجهه ابتسامة عريضة لم أرَ مثلها منذ يوم الجمعة. لم تكن تعني ابتسامته هذه سوى شيئًا واحدًا يريد أن يقوله "إنني ما زلت على قيد الحياة". نعم! إنه حيّ، وما إن جلس حتى شرع في أن يحكي ويقص الأحداث، بدأ يتحدث عن كل شيء: بداية الحفلة، والبيرة، والبار، والناس الموجودون في ساحة الرقص، ثم بدء إطلاق النار، الضوضاء، والروائح، والجثث، لم يبخل عليَّ بأي تفصيلة من التفاصيل، لم يتوقف عن الكلام وأجبرني أن أعيش معه في تفاصيل ذلك الفيلم الذي سرق عمري وحياتي. أذكر أنني اتصلت به في تلك الليلة عشر مرات، مائة مرة، بل ألف مرة. وأخيرًا رد عليَّ، كنت أنتظر منه أن يخبرني أنها بخير، وأن كل شيء على ما يرام، وأنها معه، أو أنها ربما مصابة فقط، لكنها سوف تنجو من الموت، كنت أنتظر منه أن يخبرني أنهما استطاعا الهرب والإفلات في تلك الليلة الباريسية، وسمعت حينئذ ضحكة هيستيرية لشخصين ناجيين. كنت أنتظر منه أن يوقظني من هذا الكابوس. "ليس لدي ما أقوله لك". ساد صمت بيننا، كان وقع هذا الصمت أشد أثرًا على نفسي من الكلمات التي كان يقصها عليَّ. ومع هذا الصمت ملأ الشك واليأس الأفق من حولي. يأس شديد السواد، وأمل شديد الجنون. ف"هيلين" ميتة وحية في الوقت نفسه. الآن أصبحت أعرف الحقيقة. أنا أمام حدثين من قصة هو بطلها. أدركت جيداً لماذا لم يخبرني في السابق أنها ماتت، فقد ماتت بين ذراعيه. أنا أدرك أنه ليس ذلك الناجي الذي أراه أمام عيني الآن. لكنه ما زال هناك، ما زال في المشهد العالق بذاكرتي الذي لا يريد أن ينتهي. وعندما اعتذر لي أنه لم يستطع أن يخبرني وقتها، لم أوجه له أي لوم. فحياته الآن فيلم لا يموت فيه الأشخاص أبدًا. ولكنه ليس فيلمًا خاصًا به هو فقط. إنها أحداث 13 نوفمبر. قصة القمر الذي لن يطل علينا أبدًا مرة ثانية. لكنه لم يعرف بعد بتلك القصة. تمر الدقيقة تلو الأخرى، وأنا أتابع القصة، وأتخيل الديكور العام لها، أسجل في هدوء كل أحداثها. أعلم أن يومًا ما سيطلب مني "ميلفيل" أن أقص عليه كيف ماتت أمه! أعلم أنه يومًا ما سيريد أن يعرف كل شيء. إذن عليَّ أن أتحلى بالهدوء وأن أشاهد وأسمع في صمت مأساة حياتي التي بدأت ولا مفر منها والتي لم تنتظر راويها. وعندما انتهى من حديثه بدأنا نتحدث عن أشياء وأمور الحياة وكأن شيئاً لم يحدث. تحدثنا عن الجرح الذي أصابه ليلة الحادث، عن وقت قيلولة "ميلفيل"، وعن متجره الذي أعاد فتحه. .وأخذتنا روح إثارة وكأننا عدنا مراهقين.نفدت البيرة! تعاهدنا ألا نتخلى عن بعضنا

...كن قويًا

نوفمبر الساعة: 10:10 صباحًا 20

الآن، عندما يسألني أحد "كيف حالك؟"، لا ينتظر مني أن أخبره عن حالي الحقيقي، ولكنه ينتظر مني الإجابة الاعتيادية التي يرد بها الجميع "بخير، وأنت؟". كأنَّ الإجابة عن هذا السؤال إذن ضمني للانتقال إلى موضوع طالما أن كل شيء على ما يرام. بالنسبة لي، الجميع يعرف أنني لست بخير وأن الأمور ليست على ما يرام، بعد أن أجيبهم لا ينتقلون إلى حديث آخر كالعادة، لا يتحدثون عن الطقس، ولا عن البرنامج التلفزيوني الذي شاهدوه ليلة أمس، ولا عن أخر الأحاديث التي يتناولونها في العمل. واليوم عندما يسألني أحدهم: "كيف حالك..." تكون نبرة صوته متباطئة جدًا، وكأنَّ لسانه يجر الكلام جرًا لأنه يخشى أن يرى مني صمتًا حزينًا، يكون وجهه للأسفل الناحية اليمنى، ويرتفع حاجبه الأيسر قليلاً والفم مغلق بإحكام كأنه يريد أن يقول لي: "كلي آذان صاغية! ليس عليك إلا أن تتحدث". ثم يعقب ذلك نظرة تريد أن تخترقني وتنتزع ما بداخلي كالطفل الذي يمد يده داخل علبة البونبون ليبحث عن قطعة البونبون الوردية التي يفضلها. فحزني بالنسبة لهم كالبونبونة الوردية التي يبحث عنها الطفل. الجميع يريد أن يقابلني، أن يتحدث إليَّ، أن يلمسني، وكأنني "تميمة"، أصبحوا يقيِّمونني، يقيسونني، يزنونني وكأن معهم مقياس ريختر ولكن من النوع الذي يقيس شدة الحزن، لأنهم على قناعة تامة أنهم في حديثهم معي كأنهم يواجهون زلزالًا شديدًا. تلك الهزة الأرضية التي لا تحدث إلا 5 مرات كل 100 سنة، تبلغ شدتها على مقياس ريختر: 9، وتُوصَف بأنها مدمرة، أما عن العواقب والتبعات التي تنتج عنها: "فقد تدمرت المناطق المحيطة بمنطقة الزلزال على بعد 1000 كيلو متر". كنت أحاول قدر الإمكان أن أجيبهم بالإجابة التقليدية: "بخير، وأنت؟"، والتي كنت أرى أنها تخدمني من ناحيتين. الناحية الأولى: أنها تنهي الحديث -قبل أن يبدأ -عن حالتي النفسية. الناحية الثانية: أنها تعيد المبادرة في الحديث إلى الشخص الذي يتحدث معي. وأحيانًا كنت أجيبهم إجابة أخرى بعفوية: "حالي مثل ما ترون"، وقد كانت هذه الإجابة بمثابة نزولي درجة على مقياس ريختر أي الانتقال من 9 إلى 8. والوصف: "زلزال هائل"، أما عن العواقب والآثار: "خسائر فادحة على مستوى كافة المباني والمنشآت بما في ذلك المناطق المحيطة على بعد عشرات الكيلو مترات". أعتقد أن هذه الإجابة لم تكن ترضيهم أيضًا. حينئذٍ رسمت على وجهي ابتسامة مطمئنة، كنت أفعل ذلك مع الجميع. شفتاي مطبقتان، يرتفع جانب من فمي قليلاً عن الجانب الآخر، عيناي مجعدتان، وبذلك أكون قد هبطت درجة أخرى على مقياس ريختر، وصلت لدرجة 7. الوصف: "زلزال قوي جدًا"، العواقب: "نتج عن الزلزال خسائر كبيرة في كثير من المناطق المحيطة بالزلزال، فقط المباني القوية هي التي ظلت صامدة". وكانت إجابتي "حالي مثل ما ترون" واحدة من هذه المباني، فهي أشبه بذلك الكوخ الصغير الذي نصوره بعد حدوث الكارثة الطبيعية، والذي ظل قائمًا بأعجوبة رغم كل ما حوله من دمار. فهذا ليس بالشيء العظيم لكنه يلفت الانتباه. كنت أحافظ على مظهري الخارجي قدر الإمكان. كنت أصافحهم وأشد على أيديهم وأطمئنهم مُظهرًا لهم تلك المدينة الكرتونية التي تُستخدم كديكور في فيلم حياتي الذي تركتهم يشاهدونه. فشوارع تلك المدينة نظيفة، وسكانها لا يكدر صفوهم شيء، الحياة فيها تسير بشكل طبيعي. ولكن العمارات والبيوت ليست سوى واجهات فقط، وسكانها ليسوا سوى أشكالًا فقط، وخلف هذا المظهر الخارجي المتماسك لا شيء، فعلًا لا شيء. لا شيء سوى الضيق والغم. يا تُرى ماذا سيحدث عندما يتركني الجميع ويذهبون لمشاهدة فيلم آخر؟ وماذا سيحدث عندما أبقى وحيدًا في عالمي المهجور؟ "أنا حقًا حزين جدًا بسبب ما حدث لك، تماسك! كن قويًا...". عندما أسمع هذه الجملة من أحدهم، لا يحضرني أي رد أو إجابة. "أراك لاحقاً" هذه الجملة كنت أعتبرها وعدًا، "اعتنِ بنفسك"، أعتبرها دعوة، "كن قويًا..." أعتبرها حكم بالسجن مدى الحياة. كل هذه الجمل التي يستخدمونها للتخفيف عني لم تغير شيء من المصاب الذي أنا فيه. هاتان الكلمتان الصغيرتان لخصتا فيلم حياتي الذي تحول إلى رماد. وهكذا تنتهي معظم الأحاديث بيني وبينهم، إذ تساقطت الواجهات، ورحل ساكنوها، وسقط القناع من على وجهي.

طرف الإصبع

نوفمبر الساعة 5:30 مساء 21

إنها الخامسة والنصف مساءً، تلك الساعة اللعينة التي وددنا لو نمحوها من حياتنا. فهي ساعة لا فائدة منها ما بين انتهاء النزهة وقبل إعداد العشاء. كان "ميلفيل" متحمسًا للعب، بينما كان التعب يغلبني مما جعلني غير منتبه له. شعرنا بالملل وأصبحنا ندور حول أنفسنا ويتهرب كل منا من الآخر وننتظر من سيستسلم أولًا. وتمنينا لو مر الوقت سريعًا. في نهاية المطاف، حلت الساعة السادسة والنصف. "إنه وقت الاستحمام!". تهللت وجوهنا فرحًا حين أعلنت عن ذلك بكل حماسة. فالاستحمام وقت نحب أن نتشاركه معًا. ويبدو "ميلفيل" كأنه سمكة صغيرة في حوض من الماء. بينما أنا كالطفل الذي يقترب بشدة ليشاهدها وهي تسبح. وكنت، أحيانًا، أدخل أصابعي في الماء كي أداعبها وهي تطفو على الماء لتعضني عضات خفيفة. وتهز رأسها فرحًا. وتتساقط هموم اليوم المنقضي إلى قاع الحوض. فهذه الهموم التي تخلق مزيجًا من المخاوف والدموع والمضايقات تنجلي جميعها مع الانتهاء من الاستحمام. لم يعد نفس الشيء حين أفعله بمفردي. فقد اعتدنا أن نتشارك نحن الثلاثة لحظة الاستحمام معًا، وكأنها طقوس. كان دوري هو الإمساك به بينما كانت "هيلين" تحمِّيه. وبعد ذلك، كنا نلعب ونغني ونتعانق ونتراشق بالماء ونضحك. أما اليوم فنتظاهر بالضحك. وكأن الأمور يمكن أن تسير على ما يرام بدونها. وأحيانًا أنتظرها وأقول لنفسي أنها ستدفع باب الحمام وتدخل علينا ونغني سويًا. "حان وقت الخروج". تعلق صغيري بذراعيَّ مضطربًا، فقد كانت أمه هي من تعتني به وقت خروجه من الحمام. في مشهد كأنه رقصة مصممة بعناية. وتلامس جسده العاري بيديها، وهو يرفرف بقدميه مبتهجًا من هذه المداعبة. وتضع أنفها على سرته التي كانت يومًا حبل الوصال بينهما. كان يضحك وكأننا ندغدغه. كانت تمشط له شعره كما تفعل الطفلة الصغيرة بعروستها. تبدو عليه السعادة من الاهتمام البالغ الذي توليه إياه. في نهاية الأمر، يفترق الشريكان بقبلة. هذا المساء عليَّ أن أتعلم شيئًا جديدًا، وهو تقليم الأظافر. فأنا لم أفعل ذلك من قبل، ولا يمكنني هذه المرة أن أنتظر مجيء "هيلين". جلستُ على ركبتيَّ وهو لم يبدِ أي اعتراض، فدنوت بالمقص من يده الصغيرة التي كانت في يدي، ولا أعرف بأي الأصابع أبدأ حتى نفد صبره، فبدأت في قص أظافره. وإذ بصرخة تكسر الصمت الذي خيم على المكان. فنظرت إليه لكي أطمئن عليه، فنظر إليَّ بدهشة، فأنا من كان يصرخ لأنني قطعت لتوي طرف إصبعه. كان علي ألَّا أبدأ بإبهامه، فقد شعرت بمقاومة منه ولكنني أصررت. تفحصت إصبعه فوجدت أن قطعة من جلده جُرِحت. أما إصبعه الذي ظننت أنه بُتر كان سليمًا ولم يقطر دمًا لكنه غير مغطى بالجلد. وضعت إصبعه في فمي، فشعرت أن قلبه ينبض بين شفتيَّ. إنه قلب صغير جُرِح مرتين. وماذا لو اعتقد أنني أردت به أذى؟ فكيف لي أن أفعل ذلك عن قصد! ومنذ ذلك الحين، بدأ يشعر بالخوف مني. بشكل عفوي وجدت نفسي أنظر حولي وأبحث عنها، ولكنها لم تكن موجودة كي تطمئنني وترشدني وتهدئ من روعي. سئمت من الوحدة، فليس هناك غيري، وما زال أمامي تسعة أصابع علي تقليمها، شعرت بالخجل، وأحسست أنني كطفل صغير جدًا يريد أن يلعب دور الأب ولكنه لا يعرف قواعد هذه اللعبة. لقد فشلت في المهمة، يبدو أن هذه اللعبة للكبار، فقد جرحت إصبعه. وددت الاستسلام والتسلل تحت السرير لكي أتخفى وأحلم بهذين الذراعين اللذين كنت أبكي بينهما. هذان الذراعان اللذان بإمكانهما القيام بالدور الذي ما زلت صغيرًا على القيام به، فلست أهلًا لهذه المهمة. دائما ما كنت أجده ينظر إليَّ بدهشة متزايدة دون أن يبكي أو يخاف. فأنا هنا وهو معي، فنحن بمثابة فريق من المغامرين. هو ما زال ينتظر انتهاء مهمتي حتى يذهب للعب. انطلقت من جديد وأنا أشعر أنه من يوجهني، قائلًا: -انظر يا أبي، هكذا يجب أن نفعل. .وأخيرًا توصلنا إلى الطريقة الصحيحة، وأخذت الأظافر تتساقط على الأرض واحدًا تلو الآخر

الانخراط في الحزن

نوفمبر الساعة 9 صباحًا 22

لقد أوصلت "ميلفيل" للتو إلى الحضانة، عندما وضعته لم يبكِ. تسللت من جانبه بكل هدوء حتى لا يراني وأنا أراقبه من خلف إحدى واجهات الحضانة الزجاجية. كانت الحضانة بأطفالها أشبه بحوض السمك الكبيرة الذي نشاهد الأسماك وهي تسبح فيه، وإذا ما أردت أن ألفت انتباهه إليَّ طرقت برفق على الزجاج حتى يراني. وغالبًا ما يكون منهمكًا باللعب في كتاب الموسيقي. وهو عبارة عن رحلة – في بضع صفحات – حول عالم الآلات الموسيقية. فهناك حيوان اللاما الذي يعزف على آلة "باندونيون"، والدب الذي يعزف على آلة وترية تسمى "بلالايكا"، وثعلب البندقية ذو القبعة المصنوعة من القش الذي يعزف على آلة "الماندولين". في الحضانة، كان الجميع يعرفون قصتي. لذا فعندما كنت أصل في الصباح، كانوا يرتدون أقنعة الحزن. وكأنه كرنفال الموت. كنت أحكي لهم قصة الرجل الذي لن يفقد السيطرة على مشاعره، ومع ذلك لم أنجح قط في جعلهم ينزعون الأقنعة من على وجوههم. كنت أعرف جيدًا أنني لم أعد أنا بالنسبة لهم، فأنا مجرد شبح، شبح "هيلين". أما "ميلفيل" فهو روح صغيرة بريئة مفعمة بالحياة، بمجرد وصوله تتساقط الأقنعة من على وجوههم. ويدخل إلي الحضانة في هدوء، ويودعني وهو مبتسم ابتسامة حزينة سرعان ما تختفي عند وصوله إلى صندوق الألعاب. لقد حان وقت عودتي إلى المنزل. أخذت البريد معي قبل أن أصعد، ولم أكد أفتح الصندوق حتى سقطت مجموعة من الأظرف الواردة إلينا على الأرض، وتناثرت الأوراق ذات الأشكال والتنسيقات المختلفة حولي في كل مكان. فقد كان منها السميك الذي يحوي بداخله رسائل طويلة جدًا، وكأنه يشاركني الحياة التي أعيشها. وكان منها أظرف مصنوعة من ورق الكرافت الكبيرة والتي تحوي في داخلها رسومًا أرسلها الأطفال إلى "ميلفيل". وكان من بينها أيضًا بعض البطاقات البريدية البسيطة. على كل حال، فقد حلت تلك الرسائل محل الفواتير واجبة الدفع والتي كانت تملأ صندوق البريد. فتحت الظرف الأول، وبدأت أقرأ البطاقة البريدية الموجودة داخله وأنا أصعد درجات السلم. كانت كلمات رقيقة جدًا وصلتني من الولايات المتحدة الأمريكية، وعلى باب الشقة لفت انتباهي ورقة أخرى وضعها أحد الجيران لي: "إذا كنت بحاجة إلى مساعدتي بخصوص ابنك، فلا تتردد في ذلك، جارك الذي أمامك". نثرت الرسائل على ترابيزة الصالون، وقد أثار لون أحد الأظرف فضولي إذ كان أبيض يميل إلى الصفرة، وكأنه رسالة من الزمن الماضي، فقد كانت رسالة معنونة. مرسلها يدعى "فيليب"، تخيلته يميل شعره إلى اللون الرمادي شيبًا، جالسًا على مكتبه. أخذتني كلماته، وتفاعلت مع الخطاب، فقد كان مؤثرًا، كنت مغرمًا ومعجبًا جدًا بكلماته الساحرة، كنت وكأنني قد ألقيت بنفسي داخل الظرف الذي يحوي الرسالة، التي كانت مذيلةً بجملة كأنها توقيع: "أنت الذي فُجِعْتَ بمصابك، ونحن من نستمد الشجاعة منك". دائمًا ما يخالطنا الانطباع بأنَّ -الذي يحيا ويعيش في ظروف صعبة يكون بطلًا، خاصةً إذا ما شاهدنا الأمور من بعيد. وأنا أعرف أنني لست بطلًا، فكل ما هنالك أن القدر أصابني ليس أكثر. أصابني بذلك المصاب دون أن يأخذ رأيي، ودون حتى أن يسألني إذا ما كنت مستعدًا لذلك أم لا، فقد جاء يبحث عن "هيلين"، وأجبرني على أن أستيقظ في الصباح دون أن أجدها إلى جواري. منذ ذلك الحين، وأنا لا أعرف إلى أين أنا ذاهب، ولا أعرف كيف سأعود، لذا لا يجب أن تعتمدوا عليَّ كثيرًا. أفكر في "فيليب"، صاحب هذه الرسالة، أفكر في كل الذين كتبوا إليَّ. أود أن أخبرهم أن كلماتي تجاوزت قدري. وإذا ما حاولت أن أقنع نفسي بأنها نابعة مني، فلا أدري إن كنت سألتزم بها أم لا. ولكن يومًا ما، ستغمرني تلك الكلمات. فجأة! انتابني الخوف، خوف من ألَّا أكون في المنزلة التي وضعني الناس بها أو التي ينتظرون أن يرونني بها، ألم يعد لي الحق في أن أكون خائر القوى، ضعيف العزم؟ الحق في أن أكون غاضبًا؟ الحق في أن يطفح بي الكيل؟ الحق في أن أشرب حتى الثمالة وأن أدخن؟ الحق في أن أحب امرأة أخرى، أو ألَّا أحب؟ الحق في أن أبدأ حياة جديدة أو لا أبدأ؟ الحق في عدم رغبتي في اللعب، والذهاب إلى المنتزهات، أو رواية القصص والحكايات؟ الحق في أن أخطئ؟ الحق في أن أتخذ قرارات خاطئة؟ الحق في ألَّا يكون لدي وقت؟ الحق في ألَّا أكون حاضرًا؟ الحق في ألَّا أكون مضحكًا؟ الحق في أن أكون ساخرًا؟ الحق في أن تكون بعض أيامي عسيرة وصعبة؟ الحق في أن أستيقظ متأخرًا؟ الحق في أن أتأخر عن موعد خروج "ميلفيل" من الحضانة؟ الحق في أن أترك الأطباق دون غسيل، والمنزل دون ترتيب حتى أعود؟ الحق

في ألَّا يكون مزاجي معتدلًا؟ الحق في ألَّا أفصح عن كل أسراري؟ الحق في ألَّا أتحدث عنها؟ الحق في أن أكون إنسانًا عاديًا؟ الحق في ألَّا أكون على دراية بكل شيء؟ الحق في ألَّا أريد؟ الحق في ألَّا أكون مذنبًا؟

ترتيب أغراضها

نوفمبر الساعة 11 مساءً 22

كل شيء في مكانه الصحيح. أخذت من سلة الغسيل أخر الأشياء التي ما زالت تحمل رائحة عطرها. كنت أضعهم كل مساء على وجهي حتى أنام في صحبة تلك الرائحة الأبدية. أما بقية الأشياء فلم أحرك شيئًا من مكانه. فنفسي لم تطاوعني على فعل ذلك. وبالرغم من أن مراسم الدفن ستبدأ خلال يومين ويجب أن أختار لها ما ستلبسه، فقد تمنيت لو تبقى عارية في تابوتها، وأتسلل إليها خفية وأنا عاري الجسد ويُقفل علينا هذا الصندوق حتى نتمكن في النهاية من أن ندفئ بعضنا. مرَّرت يدي على ملابسها الموجودة في الدولاب. كل قطعة منها تحمل واحدة من الذكريات. صوف معطفها الطويل ذكرني بنزهتنا الخلوية في الغابة في صباح أيام الشتاء. وقد احمرَّت أنفها، وبرزت عيناها من النظارة، وهي تضع إحدى يديها في جيبها والأخرى في يدي. كانت "هيلين" تتمتع بحضور كبير وتستمتع بكل لحظة من لحظات حياتها. كان هناك مقعد تعودنا الجلوس عليه حيثما طلبت يدها للزواج في هذا المكان وتظاهرت أنها مندهشة من ذلك. وتحت غطاء البلاستيك توجد جيبة من الحرير الأبيض الرقيق مرَّ عليها زمن حتى صارت غير ناصعة البياض. كانت ترتديها عندما قبَّلتها لأول مرة. وطبقات قماشها الخفيفة تتراقص حولها كالفراشات التي وقعت في الشباك. فبدت كالدمية التي ترقص في صندوق الموسيقى. وستكون كذلك قريبًا عندما تنزل إلى مثواها الأخير، ويحيطها جثامين الموتى الذين سيحملون الغيرة لها. فهي كعروسة صغيرة تنتظر أن يُفتح عليها الصندوق حتى تبدأ في الرقص. وسأكون أنا و"ميلفيل" بالأعلى نسمع تلك الموسيقى. على أحد الأرفف، يوجد بعض التيشيرتات المصنوعة من القطن والتي تشهد على الحيوية والشباب والتعلق بالموسيقى. تحمل هذه التيشيرتات أسماء بعض الفرق الموسيقية مثل: فرقة الروك "ليد زبلين"، الفريق الموسيقي "ذا ميسفيتس"، فرقة الروك "سليتر كيني"، فريق "ذا كرامبس"، فريق "ذا رامونيس". كانت ترتدي تي شيرت عليه شعار "الروك أند رول". كانت مغرمة بالمقاطع الموسيقية والإيقاعات المختلفة بلا تكلف أو مبالغة أو تصنع. عندما تختارك "هيلين" في عالمها ستكون بلا شك من المحظوظين، فقد اختارتك من ستفني عمرها من أجلك دون أن تنتظر مقابل. وكنت أنا ذلك الشخص المحظوظ الذي وهبتهُ "هيلين" كل شيء، فكنتُ كالملك المتوج في عالمها. وفي الأعلى، أمسكت قميصًا ملونًا، لونه برتقالي مبهج مع مربعات صغيرة بيضاء تخفف من حدة ذلك اللون. تعودت أن تربطه حول خصرها، وتكشف جزءًا من بداية بطنها الذي كنت أقبلها منه كثيرًا. كانت تشبه فصل الصيف، فهي دافئة، مشرقة، مفعمة بالحياة، لكنَّ هذا لا يمنع وجود بعض موجات الحر الشديد التي تعكر صفو هذا الفصل الجميل. لكنه في النهاية فصل الحرية حيث لياليه القصيرة التي تجعل عندنا الرغبة في الحب. وفوق الصناديق التي كانت تضع فيها أغراضها، وجدت حذاء زفافها الذي كان ذو كعب عالٍ جدًا. وذو رباطٍ مصنوعٍ من الجلد يبدأ من الكعب وينتهي في الأعلى، وكأنّ هذا الحذاء لم يصنع لتمشي فيه. كانت "هيلين" امرأة تشبه العصفورة، ما تزال معظم أحذيتها موجودة كما هي في صناديقها. وبالرغم من هذا كنت أسمع صوت هذه الأحذية من حين إلى آخر تدب على أرضية الشقة. وذات صباح مليء بالحب، جاءت "هيلين" شبه عارية وهي ترتدي أحد هذه الأحذية لا لشيء إلا لإسعادي، فلا يهمها أن يراها أحد غيري، فهي لا تبالي ولا تكترث ببقية العالم. وقد كانت بمثابة ركيزة حياتنا حيث نعتمد عليها في كل الأمور. كان القمر هو كوكبنا الذي نعيش عليه وحدنا، أنا وهي.

على ترابيزة أدوات التجميل، توجد أنبوبة الماسكارا التي ما تزال مفتوحة وبجوارها نظارتها التي تنتظر عودتها. فهي ترى نفسها امرأة عادية وبسيطة لذلك كانت تستخدم بعض الماكياج. وتقضي أمام هذه المرآة الساعات لتجهز نفسها قبل الخروج. وكان هذا بمثابة طقوس منظمة بعناية. في البداية كانت تقوم بتجهيز بشرتها، وبعدها الوجه، والعينين والفم، وفي النهاية تقوم بوضع أحمر الخدود. في مشهد تظهر فيه "هيلين" كأنها ممثلة ترتدي ملابسها. وكنت أتخيل أنني سأرى امرأة أخرى بعد أن تضع ماسك النور، وستتحول هذه الشابة الرقيقة الخجولة إلى سيدة يبدو عليها العظمة والفخامة. كنت أحب الشخصيتين بنفس القدر. فإحداهن تسكن في الأخرى، والاثنتان معًا كانا "هيلين". نرى في الحمام زجاجات البرفان الخاصة بها متراصة خلف بعضها. وهذه الزجاجات تحمل أسماءً مثيرة مثل: "لوو"، "با دو

سوا"، "داتورا نوار". وما تزال رائحة هذه البرفانات في فمي. عندما كنت أحضن جسدها الممدود، كان فمها منتعش، وثديها جذاب، وظهرها منحني قليلًا، وفخذها كأنَّه مرسوم. فقد تعلمنا الحب معًا. كان "لوو" هو البرفان المفضل لديها. كانت ملابسها موجودة على السرير كما ستكون يوم دفنها. تفوح منها رائحة عطرها. بدا لي أنَّ هذه الملابس تنهض أمامي، وبدأ جسد "هيلين" يظهر شيئًا فشيئًا على هذه الملابس. أكتافها الجميلة، سيقانها، يداها، أردافها، ثديها. "هيلين" موجودة هنا معي، فهي لي وحدي. تمددتُ بجوار هذا الجسد غير المرئي، نَفَسُها يداعب عنقي، عانقتني ووضعت يدها على وجهي وقالت لي سيكون كل شيء على ما يرام. كانت هذه هي المرة الأخيرة التي تحاببنا فيها.

"خطاب "ميلفيل

نوفمبر الساعة 4 عصرًا 24

نحن في يوم الدفن، لم أصطحب "ميلفيل" معي لصغر سنه، وذهبت لأواجه موجة الأحزان وحدي. لم أعد أرغب في الكلام، فقد تكلمت بما يكفي. أعطيت الكلمة لمن لم يتكلم بعد، ومنحت صوتي لمن ليس له صوت يُسمع. منحته نفسي فلم أعد أنا، بل أصبحت هو. "ماما، أكتب إليكِ هذه الكلمات لأخبركِ أنني أحبكِ وأشتاق إليكِ. أبي هو من يساعدني لأنني ما زلتُ صغيرًا. لا تقلقي عليه، فأنا من سيهتم بأمره، سآخذه معي للتنزه، وسنلعب معًا بسيارات الألعاب الصغيرة، وسنقرأ القصص، وسنأخذ حمامنا معًا وسنتبادل الأحضان. ليست الأمور كما كنتِ موجودة، ولكن نحن بخير. فقد قال لي أن كل شيء سيكون على ما يرام، ولكنني أعلم جيدًا أنه حزين، وأنا أيضًا حزينٌ مثله. ذات مساء شاهدنا صوركِ على التليفون، وسمعنا الأغنية التي كنتِ تُحبين سماعها. بكينا كثيرًا. أخبرني أبي أنكِ لم يعد بإمكانكِ العودة لرؤيتي. وقال أيضًا أننا أصبحنا من الآن نمثل معًا فريقًا من المغامرين. هذه الفكرة أعجبتني كثيرًا لأن أبي عندما أخبرني بها كان يعلو وجهه ابتسامة حقيقية. ففي الأوقات الأخيرة كان إذا ابتسم لي شعرت كأنه يبكي. قال لي أبي أننا نستطيع الاعتناء بأنفسنا وإذا لم تسر الأمور على ما يرام سنفكر فيكِ لأنكِ ستكونين معنا هنا. طلب أبي من كل أصدقائكِ أن يكتبوا لي خطابًا لكي أقرأه عندما أكبر. أخبرني أننا لسنا وحدنا من أحبكِ، ولكن لن يُحبكِ أحدٌ مثلنا. قال لي أيضًا أن الأطفال لا يملكون ذكريات في عقولهم قبل سن الثالثة لكنني خلال تلك السبعة عشر شهرًا التي قضيتها معكِ صنعتِ مني رجلًا كما ينبغي أن أكون في المستقبل. في الآونة الأخيرة كنا نواجه الكثير من المضايقات. أظن أن القليل منها كان بسبب أبي لكنه لم يفعل ذلك عن قصد. يوقفنا بعض السيدات في الشارع ليسلمن علينا ويسألن عن أحوالنا، التليفون لا يتوقف عن الرن، تلقيت الكثير من الهدايا من أشخاص لا أعرفهم. قلت لأبي لا تنشغل بهذا الأمر، فأنتِ كنتِ دائمًا تحملين الحب لنا مهما بدر منا وستغفرين له كل هذا. عليكِ أن تسامحيني أنا أيضًا فلم أتمكن من المجيء إليكِ اليوم، فأنتِ تعرفين أنني لا أحبُ الأماكن المزدحمة بالأشخاص الكبار، فضلًا عن أن أبي أخبرني أن الأمر سيستغرق وقتًا طويلًا وأن الجو بارد. لكنه وعدني أننا سنأتي لرؤيتكِ نحن الاثنان غدًا. قبلاتي الحارة، أنتظر رؤيتكِ غدًا وبعد غد وفي كل أيامي القادمة على أحر من الجمر. أشتاق إليكِ يا أمي. أحبكِ. ميلفيل".

نهاية الحكاية

نوفمبر الساعة 10 مساءً 24

بدأت في تأليف هذا الكتاب في نفس الليلة التي نشرت فيها مقالتي على الفيسبوك وربما بعد ذلك بليلة. كنت أستغل فرص وجود "ميلفيل" في الحضانة، وأجلس أمام الكمبيوتر حتى أطرد هذه الكلمات التي سكنت رأسي. كالجيران الذين يسكنون في الأعلى ويستمعون إلى موسيقى صاخبة. بدأت في كتابة هذه الكلمات على لوحة المفاتيح لكي تهدأ وتتوقف عن التصارع وتتركني أنام. بمجرد أن ظهرت هذه الكلمات على الشاشة، رأيت كأنها أجسام غريبة. بدأت في قراءتها حتى أفهمها، وأعدت قراءتها حتى أفهم نفسي وانتهى الأمر أن أحببت تلك الكلمات. شاهدتها من بعيد وهي تمسك بيد بعضها البعض، حاولت أن أناديها بصوتٍ عالٍ، لكن صوتي لم يصل إليها. ولم تعد هذه الكلمات أمرًا خاصًا بي وحدي. كان عليَّ أن أشرع في الكتابة سريعًا قبل أن يسدل الموت الستار بلا رجعة على قصة حبنا. فأنا لا زلت الشخص الذي يحب "هيلين" وليس ذاك الشخص الذي أحبها في الماضي، ولا زلت ذلك الشخص النقي الذي يمنعه الأمل من السقوط. فمن يدري كيف سأصبح غدًا عندما يتركني الحزن أسقط وحدي؟ كانت قصة حبنا كأنها حب عابر، استهلكنا فيه كل ما لدينا من مشاعر وأحاسيس، فلم يكن أمامه إلا أن ينقضي. ولكن يظل أثره واضحًا في حياتنا بجماله ورونقه وقوته، لذا عانقته وضممته إليَّ كي لا يتركني. لكنني أعلم أنه قد تركني بالفعل تقريبًا. وفي رحلة البحث عن حبيبٍ آخر يجلب إليَّ العذاب، رحل هو الآخر وتركني وحيدًا مع رفيق الطريق الحزين الذي يلازمني، وهو الحداد. وأنا ألحظ أثر ذلك الحزن، كالبقعة السمراء التي ظهرت في جانبي. منذ سنوات وأنا أراها تكبر في نفس الموضع. تلك البقعة التي صارت أكثر سوادًا وأكثر اتساعًا. حتى أصبحت مشكلة حياتي التي حاصرتني. فهي تغطي معظم معدتي تقريبًا. فلم أعد أتذوق شيئًا، حتى أصبح الأكل معاناة بالنسبة لي. فهذه البقعة ستتسلل إلى صدري لتضغط على الزور لتمنعني من التنفس. وتخترق ما تبقى من قلبي لتسكب سم الموت الذي يروي كل أوردتي. لم تعد سيقاني قادرة على الوقوف، وتسمرت ركبتاي وأصبحت قدمي ضعيفة كأنها من الصلصال. ثم تنتقل إلى كتفيَّ حتى تجبرني على الانحناء، ولم تعد ذراعيَّ قادرةٌ على حمل شيء. وسيتخلى عني جسدي، لكن سيكون عقلي دائمًا موجودًا. ليمهلني حتى أرى نفسي وأنا أهلك. لكنني لست خائفًا، أنتظرها، أعرفها. وأحاول أن أقنعها أن تتمهل قليلًا. لكن هذه السيدة السمراء جادةٌ في عملها. فهي تُحكِم سيطرتها على الرقبة بأكملها حتى نهاية الحلق، لتضغط عليه بقوةٍ شيئًا فشيئًا. لن تعد أنفي تعرف رائحة الذكريات. ولن ترى عيني إلا الأشياء الواضحة. أحببت لو كان كتابي الأول عبارة عن قصة، لكن لا تكون .قصتي. تمنيت أن أحب هذه الكلمات دون أن أخاف منها

بدأت أكتشف هذه الكلمات التي كتبتها عبر لوحة المفاتيح وأتأثر بها عندما سمعتها لأول مرة من شخص آخر. تأثرت كثيرًا عندما علمت كم ستكون حياة هذين الشخصين مليئة بالصعاب. تولدت لدي الرغبة في مساعدتهما. وأحببتهما الاثنين معًا في صحبة الخنفساء الصغيرة، والوجبات الخفيفة، وأمهات الحضانة اللاتي لا تغنين عن الأم. لم أعد قادرًا على سرد الحكاية، فالأمور لم تعد واضحةً أمامي. لا أعرف من أين أبدأ وأين أنتهي، وفي كل ساعة يتبدل حالي بالكامل. فالحاضر سيصبح ماضيًا. وسأقضي يومي دون أن أشعر بالوقت، وأقضي الأيام دون أن أشعر بالساعات. بموت "هيلين" انتهت الحكاية، ولم يعد هناك ما نحكيه. ولم يتبقَ سوى هذه اللحظات التي تظهر فجأة. تلك اللحظات التي كان عليَّ أن أسجلها، والتي تنبثق من حياة بلا روح. أنتظر مجيء المساء لأعطي ابني قبلة على جبينه وهو في فراشه. قبلة أخيرة من ذاك الرجل الذي أحب أم هذا الطفل الصغير. ذلك الطفل الذي رأيته بمجرد ولادته بعينين مفتوحتين على العالم، والذي كان يحلم بحياة يستمتع فيها بالحب في كل أوقاته. كما كنا حتى آخر لحظةٍ من حياتنا السابقة. وعندما ينام ذلك الصغير، سأستسلم بين أذرع الظلام الذي يحيطني. سوف نذهب في الغد لنرى أمه، فقد انتهيت تقريبًا من هذا الكتاب. لكن هذا الكتاب لن يخفف عني ما أنا فيه. فلا يستطيع أحد أن يتغلب على الموت. وكل ما نستطيع فعله مجرد ترويضه. فهو كالحيوان المتوحش، الذي له أنياب حادة. وأنا أحاول أن أبني له قفصًا أحبسه

فيه. فهو بجواري ويتربص بي ليفترسني. وما يفصل بيني وبينه ليس إلا قضبان من الورق. وبمجرد أن أغلق الكمبيوتر، سيخرج الوحش من قفصه.

هنا ترقد أمك

نوفمبر الساعة 7:45 صباحًا 25

شرب "ميلفيل" لتوه اللبن الموجود في البيرونة كله. فشهيته مفتوحة رغم ما نحن فيه. يجلس "ميلفيل" بين ساقي ونحن نستمتع بهدوء الصباح في السرير الذي ما زال دافئًا. كلانا يسعى إلى إطالة وقت السعادة. دندنت له ببعض الأغاني الجميلة، أما هو فكان يشير إلى كل تفاصيل وجهي: "هذه أنف بابا"، "هذا فم بابا"، "أين أذن بابا؟". كلانا لا يريد أن تنتهي هذه اللحظات الصباحية الجميلة. علينا أن نجهز ونغتسل. لكن عليَّ في البداية أن أجهز الحمام: الماء الساخن، والصابون، والشامبو. هذا الصباح كان بمثابة قصة بطلها هو "ميلفيل"، وشرير هذه القصة كان رأس الدش المصنوعة من المعدن – التي تشبه الثعبان -الذي يُنزل ماءًا دافئًا يتصاعد من فتحاته البخار بكثافة. كنت كالسجين في الحمام. وسيفعل "ميليفل" كل ما بوسعه كي يطلق سراحي. أسرع نحو الباب لينفذ خطة الهجوم. ترك الباب مفتوحًا فخرج بخار الماء على الفور من الحمام. "أغلق الباب يا "ميلفيل"، أنا أشعر بالبرد". كان هذا هو النصر الأول. وضع يده وذراعيه وشعره وكل ما أمكنه في الماء حتى يجعلني أخرج بسرعة من الماء. "سوف تغرق بالكامل في الماء... اخرج من الحمام بسرعة". كان هذا هو النصر الثاني. الخروج والصمت كانا هما الوسيلة التي عاد بها من جديد إلى المعركة. ""ميلفيل"، أين أنت يا صغيري؟ تعال هنا!". كان هذا هو النصر الثالث. هذه المرة كان سلاحه في المعركة هو الكتاب المصور الذي بمجرد أن وضعه في البانيو أغلقت الدش على الفور. "لا يا "ميلفيل"، لا تضع الكتاب في الماء". وهكذا انتهت المعركة بالضربة القاضية. أشعر بحالة انهيار. فقدت القدرة على التحكم في أعصابي. فاضت الدموع على وجهي. فاليوم موعد الذهاب إلى قبر أمه. أمس، لم يحضر "ميلفيل" مراسم الدفن. فالجو كان شديد البرودة، وعملية الدفن استغرقت وقتًا طويلًا، وكان الأمر قاسيًا على طفلٍ مثله. فتلك لحظة علينا أن نعيشها بمفردنا. وقبل أن أذهب أخبرته بكل شيء يتعلق بالأمر. أن أمه في طريقها للدفن، وأن ذكرياتنا ستستمر معها، لكن جسدها سيظل هناك تحت الثرى. ووعدته بأننا سنذهب لزيارتها معًا في اليوم التالي. واليوم، وبرغم من كل ذلك، فكلما اقتربنا من هذه اللحظة، كلما ازداد خوفي. خوفي ألَّا يدرك أي شيء. خوفي أن يدرك كل شيء. خوفي ألَّا يكون مهيأ للأمر. خوفي أن أكون أسرفت في حديثي إليه عن الأمر. تملكني الخوف على كل حال. لكن في النهاية يجب أن نذهب. بدت عيناه مستديرتان ككرة صغيرة، وينظر إليَّ بعطفٍ شديد. فهو يعرف أن ما حملني على البكاء ليس تبلل الكتاب. يحاول أن يخفف عني ما لم يعد لديَّ قدرة على تحمله. "لكنك لا تزال صغيرًا على فعل هذا يا حبيبي". حضن مبلل يكفي ليطمئنني ويطمئنه. في صمتٍ تام، بدأنا نجهز ملتزمين بالروتين الصباحي الذي اعتدنا عليه: الحفاضة، ثم الملابس، الحذاء، الجاكيت، وأخيرًا أحمله في حضني. إلا إنه يعرف أن هذا اليوم ليس يومًا عاديًا كغيره. أحضرت معنا صورة تجمعه بأمه لأضعها أعلى قبرها حتى يفهم من خلالها أنها موجودة في هذا المكان. كم هما جميلان في هذه الصورة! يظهر "ميلفيل" في الصورة وفي فمه سكَّاتة على شكل صاروخ، وينحني برأسه نحو أمه ليلامس خده خدها. فبمجرد ما يرى ذلك ربما يحدث بينهما اتصال، ويشعر بوجودها. تبدو عليها السكينة والهدوء والسعادة داخلية، وعيناها تحمل نظرات واثقة. أصبح الوقت ملك لنا، نحن في إجازة من الآن. كان إغلاق باب الشقة في ذلك اليوم بمثابة أن نترك حياة بالكامل خلف ظهورنا. حياة ستصبح من الآن غريبة عنا. ومكان لم نعد نحتمل العيش فيه، وكأننا لم نعش فيه أبدًا. ذلك البيت الصغير الذي يحوي بداخله الروائح التي اعتدنا عليها، العادات التي استقرت في حياتنا، لقد أحببنا ذلك المكان، الذي شعرنا فيه بالراحة، لكن لم يعد بإمكاننا دخوله مرة أخرى. طرقنا الباب، وحاولنا تحطيمه، ف"هيلين" مقفول عليها، وحيدةً في منزلنا الموحش. المفتاح معها في الداخل، فهي مدفونة في الحي الخامس في مقبرة حي "مونمارتر" في باريس. الجو رائع اليوم، اختفت الغيوم، غمرت أشعة الشمس المقبرة كأنَّ السماء تصب عسلًا. لكن بالأمس، كانت السماء كأنها تبكي دمًا. ويتزامن سقوط الدم المجمد مع وقع خطانا، ويصطدم هذا الدم بالمظلات التي كانت تملأ الطريق. أما اليوم فقد انتهى الموكب الجنائزي. وبدأنا في السير نحو حياتنا الجديدة. أمسك "ميلفيل" بيدي، وصل طوله إلى نصف فخذي تقريبًا، وبرغم ذلك فقد بدا طويلًا بالنسبة لسنه. أخذ يلعب في بركة من ماء الأمطار. ذاب خوفي شيئًا فشيئًا في تلك المياه التي ينثرها محدثًا صوتًا بضربات أقدامه. اللعب هو سلاحه، فالطفل

بطبيعته لا يرى الأمور كما يراه الكبار. لكن براءته هي من ستنقذنا. تقع المقبرة في اتجاه اليسار بعد المدخل الرئيسي. اقتربنا من المقبرة. وصلنا هناك. هنا ترقد حياتي كلها تحت قدميِّ. ترقد هنا في بضع أمتار قليلة، يحيطها الحجارة والبرودة والطين. كم هي قصيرة تلك الحياة. وضعت الصورة التي كانت معي في وسط الزهور البيضاء التي كانت تزين المقبرة كأنها مجموعة من النجوم المعلقة في سماء الليل. لكنه ليل غاب عنه القمر. فهو محبوس في قبره، ولن يظهر مرة أخرى. "هنا ترقد أمك". ترك "ميلفيل" يدي فجأة وصعد على القبر وأخذ يسحق في الورود الموجودة عليه، لكن دون جدوى. كنت أخشى أن يكون هذا بحثًا عنها. استمر في طريقه المليء بالأحزان حتى وصل إلى صورتها وأخذها، ثم عاد نحوي وأمسك بيدي، عرفت أنه وجدها. أراد أن ننصرف على التو دون انتظار. ونصطحب أمه معنا. لم أستطع الرفض أو المقاومة، طلب مني أن أحضنه، فأخذته بين ذراعيَّ، وهي معنا، نحن ثلاثة، ."وسنظل كذلك دائمًا. في طريق عودتنا، رأيت بركة المياه فقفزت من عليها بقدم واحدة فضحك "ميلفيل